السنة الثالثة. **الفوج:2-5-6**

تخصص: الدراسات الأدبية

نوع المقياس: تطبيق

اسم المقياس: الأدب العربي والاستشراق

أستاذ المقياس: أد/ وافية بن مسعود

مفردات المقياس

1-الإستشراق، حدود المصطلح وأبعاده

1.1.مفهوم الاستشراق

2.1. المصطلحات المحيطة بالاستشراق (الاستعراب/ الاستغراب)

3.1. مراحله

4.1. دوافع المستشرقين وأهدافهم

5.1.مجالات الاستشراق

2. مدارس الاستشراق

1.2. المدرسة الإسبانية

2.2. المدرسة الإيطالية

3.2. المدرسة الفرنسية

4.2. المدرسة الإنجليزية

5.2. المدرسة الألمانية

3. **دراسة المستشرقين للأدب العربي القديم** (الشعر الجاهلي عند مارجليوت)

4. **دراسة المستشرقين للأدب العربي الحديث والمعاصر** (الرواية)

1-الإستشراق، حدود المصطلح وأبعاده

1.1.مفهوم الاستشراق(L'orientalisme)

يُنظر إلى الاستشراق بوصفه علما ومجالا معرفيا أثار جدلا كبيرا ومازال يثيره عند الغرب والعرب على حد سواء. ومع أنه مرّ بتحولات وأجيال متعددة، لبس فيها عباءات مختلفة منذ القرن 14م إلى وقتنا الحالي، إلا أن دوره لا يمكن أن يغفله باحث.

قدّم الباحثون كثيرا من المفاهيم في المراد من مصطلح الاستشراق، وهي تأخذ تصورات مختلفا تبعا لموقفهم منه وإيديولوجيتهم، فبينما يرى المستشرقون أنه ميدان علمي من ميادين الدراسة والبحث، يتجه العرب وبعض النقاد من الغرب أيضا إلى اعتباره مؤسسة غريبة ذات أهداف معلنة وغير معلنة.

ومع ذلك يمكننا أن ننطلق من كون الاستشراق ظاهرة طبيعية ظهرت جراء العلاقة والصراع على موازين السلطة والمعرفة بين قطبين كبيرين هما الشرق والغرب، وكان نتيجة حتمية لهذه العلاقة. لذلك سنبدأ أولا باستعراض مفهوم المصطلح والمصطلحات المتاخمة له، ثم ننتقل إلى الحديث عن مجالاته وأهدافه.

لا حاجة لنقف عند التعريف اللغوي للاستشراق مادامت الكلمة لم تظهر في المعاجم اللغوية العربية القديمة، ما عدا كلمة شرق الذي يعد معناها بديهيا وواضحا للجميع، سنتدرج لمناقشة مفهومه المعرفي مما قدمه الغربي من تصورات ثم العربي بعد ذلك.

يأخذ رأي المستشرق **"رودي بارث"** في الاستشراق وضعا ملتبسا، وإن كان بسيطا في بعده الأول، ذلك أن الاستشراق لديه "هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي"، وهذا يعني فيما يعنيه العلم الذي يكون الشرق موضوعا له. وهو ما يشير في المرحلة الأولى إلى البعد الجغرافي لحقل الدراسة الذي يضم في العادة الشرق الأقصى والأوسط والشرق الأدنى.

ومع ذلك فإن "رودي بارث" يرى أن معنى كلمة شرق احتاج دائما إلى مراجعة فهو مائع وغير واضح، فالظاهر أن اسم الشرق تعرض لتغيير في معناه، فالشرق بالقياس إلينا نحن الألمان، يعني العالم السلافي. العالم الواقع خلف الستار الحديدي. وهذه المنطقة يختص بها علماء شرق أوروبا. أما الشرق الذي يختص به الاستشراق فمكانه جغرافيا في الناحية الجنوبية الشرقية بالقياس إلينا، والمصطلح يرجع إلى العصر الوسيط بل إلى العصور القديمة التي كان فيها البحر الأبيض المتوسط يقع كما قيل في وسط العالم. وكانت الجهات الأصلية تحدد بالنسبة إليه.كذلك تعرضت لفظة الشرق في أعقاب الفتوحات العربية الإسلامية لتغيير آخر في معناها، فقد انطلق الفاتحون في ذلك الوقت من شبه الجزيرة العربية إلى الشرق والغرب معا، ومنذ ذلك الحين تعتبر مصر وبلدان شمال إفريقيا ضمن الشرق. ويختص الاستشراق – كما يفترض –بالبلدان الشرقية دون غيرها.

إن المسألة إذن ليست تحديدا جغرافيا بسيطا وإنما هي مسألة تتغير بتغير موازين القوى في العالم، فيوم كان العالم يضع شمال إفريقيا في وسطه كانت الاتجاهات واضحة بالنسبة إلى أوروبا، ولكن مع ظهور قوة جديدة هي الامتداد الإسلامي الذي انطلق من شبه الجزيرة العربية إلى كل الاتجاهات نحو بلاد الفرس والهند والصين وشمال البحر الأبيض المتوسط ووصل إلى حدود أوروبا، فإن الاتجاهات تختلف وميدان الاستشراق يختلف كذلك. ويصبح مدار اهتمام الغرب بالشرق الأول ما تبعه من امتدادات لم تكن تحت طائلته من قبل، مما يجعل حدود الاستشراق غير واضحة كفاية. فمفهوم الشرق تعرض لتغيير خطير بعد توسع العرض فركز على المناطق التي فتحها المسلمون سواء أكانت في الغرب أم الشرق.

وإذا كان رودي بارث قد طرح هذا الانشغال، فإن المستشرق "**ميكائيل أنجلو جويدي**" فإن الأمر أكثر وضوحا بالنسبة له، فـ"الاستشراق هو الجمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت في تكوين الثقافة الإنسانية، وهو أيضا تعاطي الحضارات القديمة، أو هو تقدير شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى." ويضيف كذلك قوله: " علم الشرق هو علم من علوم الروح (Science de l'esprit)، يتعمق في درس أحوال الشعوب الشرقية ولغاتها وتاريخها وحضاراتها، ثم يستفيد من البحوث الجغرافية والطبيعية ... إنه درس تاريخ الروح الإنساني من وجهة نظر الشرق.

ويمكننا أن نستنتج من تعريفه هذا – على خلاف سابقه أن حدود الاستشراق واسعة بالفعل لكنها واضحة، فهو العلم الذي يختص بالبحث في حضارة أهل الشرق ونتاجهم الفكري، ودارسه وجب عليه التبحر في لغات أهل الشرق وفهم حضارتهم، وهذا يشمل الحضارات القديمة والحديثة، يشمل الإسلام وغير الإسلام. والاستشراق بهذا المفهوم يجمع بين اكتشاف العلوم واكتشاف جوهر التفكير الشرقي وجانبه الروحي الذي تقوم عليه ثقافته.

وإذا كان المستشرقون الغرب يقدمون الاستشراق بوصفه علما حياديا لا غايات أخرى لديه، فإن نظرة الباحثين والمفكرين العرب والمسلمين له مختلفة في أهدافه وإن لم تختلف كثيرا في موضوعه، فالمفكر "**مالك بن نبي**" يرى أننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي، وعن الحضارة الإسلامية، ثم إن علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى طبقات على صنفين:

أ) من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل جربرت دورياك(Gerbert d'Aurillac) ، والقديس توما الإيكويني(Thomas d'Aquin) وطبقة المحدثين مثل برنار كارا دو فو (Bernard Carra de Vaux) وإغناز جولد سيهر.(Ignaz Goldziher)

ب) من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين في كتاباتهم، فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية وطبقة المنتقدين لها، المشوهين لسمعتها.

وهكذا وعلى الترتيب يجب أن تقوم أي دراسة شاملة لموضوع الاستشراق.

نلاحظ إذن أن مالك بن نبي يدفع بالاستشراق إلى موضوع أكثر تحديدا من الشرق كله، وهو العالم الإسلامي، الذي خصه الاستشراق بالاهتمام الأكبر من البحوث وكل ما يحوم حوله–اللغة، الدين، العلوم، الفلسفة...إلخ–منذ أن ظهر الإسلام وانتشر ليصبح على تخوم أوروبا إلى يومنا الحالي.

وقد حدّد مالك بن نبي عاملا تاريخيا على درجة كبيرة من الأهمية، هي أننا لكي نفهم الاستشراق لا يجب أن نقف عند حدود الجهود الحديثة فيه، وهي الجهود التي تعود إلى القرن الثامن عشر وإنما علينا الانتباه إلى طبقة أخرى تمثل الجهود القديمة في هذا المجال منذ ظهور بعض الأعمال الفردية أو المؤسساتية التي تعود إلى القرن 11م.

كما نبّه مالك بني نبي أيضا في تعريفه الاستشراق إلى ضرورة النظر في مختلف تياراته، ذلك أن في المستشرقين من كان معتدل التناول للإسلام وفيهم من كان مدفوعا بحقده وأهدافه الدينية أو السياسية.

يمكننا أن نعرجّ على تعريف آخر قدمه الباحث "**محمود زقزوق**" الذي يرى أن "الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي، وكلمة "مستشرق" بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله، أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه، لكننا هنا لا نقصد هذا المفهوم الواسع، ولا يعنينا هنا أن نتعرض لبحثه، كما لا يعنينا أيضا أن نتعرض للتغيرات الجغرافية والحضارية التي طرأت على مفهوم الشرق في مختلف العصور، وإنما كل ما يعنينا هو المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذي يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام."

يضعنا الباحث وفقا لهذا التعريف أما وجهين للاستشراق أحدهما يتسع ليشمل الشرق بأكمله (الصين، الهند، العالم العربي والإسلامي)، ومهمته دراسة الإنتاج الحضاري لهذه البلدان ودورها في بناء الحضارة الإنسانية. والوجه الآخر يتم حصره في الدراسات الغربية التي اتخذت الشرق الإسلامي موضوعا لها بالتركيز على علوم اللغة العربية والدين والفلسفة والتاريخ...إلخ.

يجد المتفحص لهذه المسألة أبعادا عديدة منها أن الشرق الإسلامي أخذ الحصة الكبرى من اهتمامات المستشرقين من جهة نظرا للصراع المباشر الذي دخله مع الغرب بعد فتح الأندلس، ومن جهة ثانيا أن عددا من المستشرقين الغرب ناصب العداء للإسلام وتمت مهاجمته بشكل شرس يبعد أحيانا عن العلمية التي يدعيها المستشرقون أنفسهم.

وإذا كانت المفاهيم التي قدمناها لهذه الظاهرة العلمية حتى الآن لا تخوض في أدواره العلمية وغير العلمية، فإن الباحث " **إدوارد سعيد** " قدّما فهما جديدا–يكاد يكون انقلابا جذريا على مستوى الطرح والمعالجة – للاستشراق، إذ قدّم في بداية كتابه "الاستشراق" طرحا ثلاثي النظرة، يشمل ثلاث معان نجمعها فيما يلي:

1-الاستشراق مبحث علمي أكاديمي، ينشغل فيه المستشرق بالتدريس أو الكتابة أو إجراء بحوث موضوعها الشرق، سواء أتصل ذلك بجوانب الشرق العامة أم الخاصة.

2-الاستشراق أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين مل يسمى شرقا وبين ما يسمى الغرب، أي إنه عبارة عن أسلوب للخطاب والتفكير.

3-الاستشراق هو المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق والتحدث عنه، واعتماد آراء معينة عنه، وتدريسه للطلاب وتسوية الأوضاع فيه، والسيطرة عليه، باختصار هو أسلوب غربي للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والتسلط عليه.

وجب علينا أن نقف مليا عند هذا التعريف بكل تعقيداته ذلك لأنه لا يظهر موضوع هذه الظاهرة العلمية فحسب وإنما يظهر أبعادها وأهدافها، ولنبدأ بتفصيل كل تصور على حدة:

1-بدأ إدوارد سعيد من المفهوم القاعدي للاستشراق الذي أقر به المستشرقون في كتاباتهم وأكده الغرب في معاجمه، وهو ما يدل بشكل مباشر إلى مجموع الدراسات التي تعنى بالشرق كاملا.

2-انتقل إدوارد سعيد بعد ذلك إلى تحديد فاعلية الاستشراق بوجه الخطاب الغربي الذي يعيد تصوير الشرق بناء على موقفه منه، وهو بذلك يوضح أن خطاب الاستشراق يفصل بشكل عنصري بين الشرق والغرب، يقوم الغرب بإعادة صياغة الشرق وتخييله كما يريد وحسب أفكاره، التي وإن ارتبط بعضها بالوقائع فإن الأغلب والأعم عبارة عن تخيلات مبتكرة من رحالة ومبدعين زاروا الشرق أو لم يزوروه. في إشارة إلى توجهات في الفنون الغربية سواء التشكيلي منها أو الأدبي الذي استلهم الشرق ووظفه فنيا

3-أما آخر تصور للاستشراق – وهو الذي يصر عليه إدوارد سعيد كثيرا – هو أن إعادة البناء التي يمارسها الخطاب الاستشراقي على الشرق سمحت له بتكوين صورة عنه في المتخيل الغربي، وهذه الصور النمطية مدفوعة من طرف قوى ومؤسسات تستهدف الهيمنة على عالم الشرق بعد فهمه، وهو الأمر الذي نجح فيه الغرب باستعمار الشرق كله في القرنين 19 و20م.

ونستنتج من ذلك أن النظرة للاستشراق تغيرت بعد أن أقدم إدوارد سعيد على تشريحه وتبيان دوره الفعال في التمهيد لاستغلال الغرب للشرق، والهيمنة عليه بتسويق نظرة وصورة نمطية عنه لدى الغربيين والشرقيين أنفسهم بأنه شرق لا يمكن أن يحكم نفسه بنفسه ولكن كتب عليه أن يظل محكوما. وهذا التقويض للفكر الاستشراقي هو ما ساعد بعد ذلك على إعادة فهم الظاهرة وأبعادها السياسية والاقتصادية والفكرية، وساعد على ظهور أنماط جديدة من الدراسات والنقد، عرفت بـ: النقد المعرفي، النقد الثقافي، الدراسات ما بعد الكولونيالية ...إلخ.

2.1. المصطلحات المحيطة بالاستشراق (الاستعراب/ الاستغراب)

جرى استخدام مصطلح الاستشراق قديما وحديثا ومازال متداولا حتى وقتنا الحاضر، لكن ذلك لا يمنعنا من التنبيه إلى أن الظاهرة العلمية لها مصطلحات أخرى تدل عليها، وتعد امتدادا لها في الدراسات المعاصرة، كما نجد لها مصطلحات قديمة تشير إليها أو تقابلها.

يمكننا أن نرى بوضوح أن استعمال كلمة استشراق قد خفت في الدراسات المعاصرة، لكنها استبدلت بمصطلحات أخرى، مثل: "**دراسات المناطق**"، "**الدراسات الشرقية**" والسبب وراء ذلك حسب إدوارد سعيد هو أن كلمة استشراق غامضة وتميل إلى التعميم من جهة وأن فيها نوعا من الإيحاء بالاستعلاء على الشرق في عهد الاستعمار الأوروبي من جهة ثانية

وقد نجد مصطلحين بديلين عن الاستشراق في جانب المخصوص بالدراسات العربية، في كلمتي **الاستعراب** و**المستعرب** وأصلهما عربي، فاستعرب فلان؛ أي صار دخيلا في العرب وجعل نفسه منهم. كان مصطلح الاستعراب شائعا جدا في القرون الوسطى في الأندلس؛ بحيث أطلق على جماعة من المسيحيين كانوا يعيشون في ظلال الحكم الإسلامي، لهم فنونهم وآدابهم، وقد لعبوا دورا خطيرا في تأليب الناس على الحكام المسلمين، ثم ما لبثوا أن اتفقوا مع المسلمين وتعايشوا معهم.

أطلق المصطلح على فترة وصل فيها التأثير الإسلامي إلى ذروته على أوربا والعالم بأسره في العلوم والفنون وقد كانت أوروبا تعيش الجهل والتخلف ووجد الغرب فيما قدمه المسلمون فرصتهم للنجاة فتعلقوا بها منذ بداية القرن 8 م إلى أواخر القرن 15 م .

نستطيع القول إذن إن الاستعراب جزء من الاستشراق بما أنه يركز على الدراسات التي تختص بحياة العرب وعلومهم وأديانهم وتاريخهم أما الاستشراق فيدرس الشرق كاملا بشعوبه العربية وغير العربية. وتوجد مصطلحات أخرى شبيهة به منها **الاستفراس**، أي دراسة بلاد الفرس، **والاستتراك** أي دراسة بلاد الأتراك.

كما يظهر مصطلح آخر هو " **الاستغراب** " الذي يأخذ وضعا معاكسا للاستعراب، ويحمل دلالتين متمايزتين:" الدلالة الأولى تشير إلى حقل من البحث والتأليف يعنى بدراسة الغرب أو الحضارة الغربية من خارجها، مما يجعله مقابلا للاستشراق كما مارسه الغربيون في دراسة الشرق من زوايا مختلفة[...] أما الدلالة الأخرى، فهي أن الاستغراب حقل لتشكل الصور والتمثلات حول الغرب بوصفه آخرا للثقافة العربية الإسلامية "، أي إن الاستغراب يأخذ جانبا علميا في الدراسات التي تختص بالغرب موضوعا لها وجانبا إبداعيا في الفنون التي تعيد تمثل الغرب وصورته بوصفه الآخر المنافس.

3.1. مراحل ظهور الاستشراق

أول استعمال لكلمة مستشرق كان سنة 1630، عندما أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية، وفي سنة 1691 نجد أن أنطوني وود يصف صموئيل كلارك بأنه (استشراقي نابه)؛ أي إنه على علم ببعض اللغات الشرقية.ثم دخلت هذه الكلمة إلى القاموس الإنجليزي سنة 1779. ثم إلى معجم الأكاديمية الفرنسية سنة 1838

وإذا كان دخول المصطلح إلى حقل الاستعمال العلمي جاء متأخرا فإن ظاهرة الاستشراق تعود إلى وقت سابق جدا، إذ يعيد كثير من الدارسين البداية الرسمية للاستشراق إلى القرار الذي اتخذه مجمع الكنائس في فيينا عام 1312م الذي أوصى أن يتم تدريس العربية وعلومها في كبرى المراكز العلمية الأوروبية أكسفورد وباريس وبولونيا وأفينون وسالامانكا، وتعد خطوة البداية الأوروبية لمقاومة المسلمين ثقافيا، بتنصيرهم عبر استخدام اللغة العربية. وهكذا كان السبب الأول لمؤتمر فيينا

أن تتم معالجة هيمنة الحضارة العربية الإسلامية وتهديداتها للبلاد المسيحية عبر دراسة هذه الحضارة وفهمها والتأثير عليها.

يمكننا أن نجمل مختلف آراء الباحثين في بدايات الاستشراق فيما يلي:

1-يرجع بعض الباحثين نشأة الاستشراق إلى أواخر القرن السابع الميلادي، ويستندون في ذلك إلى كتابات بعض المسيحيين عن الإسلام أمثال يوحنا الدمشقي، ولا شك في أن هذا الرأي ربما توافق مع المفهوم العام للاستشراق لا المفهوم الأكاديمي له.

غير أن ذلك لا يقنع بعض الدارسين العرب، ومن محمود حمدي زقزوق الذي يرى أن "يوحيا الدمشقي كان رجلا شرقيا عاش في ظل الدولة الأموية وخدم في القصر الأموي. ولهذا سنصرف النظر عن مثل هذه المحاولات من جانب النصارى الشرقيين ونقصر حديثنا عن العلماء الغربيين"

2-ويرى بعض الباحثين أنه نشأ في القرن العاشر الميلادي حين بدأت التلمذة الغربية على الشرق التي كان رائدها الراهب جربرت، الذي تعلم العربية في قرطبة ثم عاد إلى بلاده ليتولى البابوية تحت اسم سلفستر الثاني.

3-وهناك من يقول: إن الاستشراق، نشأ في القرن الثاني عشر، ويستدل على ذلك بظهور أول نتاج استشراقي تمثل في أول ترجمة لمعاني القرآن، وكذلك ظهور أول قاموس لاتيني عربي

4-كما أن هناك من الباحثين يرى أن الاستشراق يعتبر نتيجة من نتائج الحروب الصليبية، ذلك أن هذه الحروب كانت آخر مراحل الصراع الديني المسلح بين المسلمين والمسيحيين، وأن هؤلاء ربما اقتنعوا بأنه لا يمكن الانتصار على المسلمين عسكريا وهم متمسكون بدينهم، ولكي يتم قهرهم والسيطرة عليهم يجب الفصل بينهم وبين دينهم عن طريق ما عرف فيما بعد بالغزو الفكري الذي كان الاستشراق أحد أهم مظاهره، ونتيجة لهذه القناعة تولت الكنيسة هذا العمل

وقامت برعاية كل الجهود الرامية إلى تعلم العربية وفهم الدين الإسلامي، وهي الجهود التي تطورت بعد ذلك لتكون حركة الاستشراق.

5-وأخيرا فإن بعض الباحثين يرجع نشأة الاستشراق إلى القرن الثامن عشر، متخذا من حملة نابليون على مصر نقطة انطلاق الحركة الاستشراقية. وعلى الرغم من أن هذه الحملة عسكرية إلا أن اصطحاب نابليون معه مطبعة وعددا من العلماء والباحثين هو الذي دفع إلى القول بأنها بداية الاستشراق.

ولإتمام شرح هذه الآراء نستطيع أن نظمها في مراحل ثلاث، هي:

1. مرحلة التكوين (مرحلة الانبهار بالحضارة الإسلامية)

كان ميلاد الاستشراق في القرن 8 م، فقد شبّ وترعرع في كنف الكنيسة، التي وجهته واستغلته، فقد ميز هذه الفترة الجهل الغربي الأعمى وتعصبها ضد الإسلام، فمنذ أن اتصل الغرب بالعرب عن طريق الأندلس بدأ أصحاب الفكر فيه يعادون المسلمين، ولعبت الكنيسة الدور الأكبر في ذلك، فلم تمنح العقلية الأوروبية فرصة للتفكير في قيمة الحضارة الإسلامية في الأندلس. واستمر الأمر كذلك إلى غاية الحروب الصليبية.

بدأت أوروبا تراقب عن كثب ما يجري في طليطلة والأندلس، ومن بين أشهر الملوك تواصلا مع الشرق: الامبراطور شارلمان، الذي كانت له صلات مع الخليفة هارون الرشيد، وقد حفزه تطور المسلمين على نهج الطريق نفسه، بإحياء ما أسماه الحركة العلمية، فغير عن طريق رجل اسمه (الكوان) طريقة التدريس، وفتح المعاهد وأدخل العلوم الحديثة، وفصلها عن بعضها فوضع منهجا للجغرافيا وآخر للطب وآخر للموسيقى والفنون ...إلخ، لكن بعد وفاة شارلمان قامت الكنيسة بإغلاق المدارس وإلغاء تدريس هذه العلوم خوفا من الامتداد الفكري الإسلامي.

اعتلى بعد فترة من الزمن العرش الملك "شارل " حفيد شارلمان، الذي أعاد إرث جده، ولم يأبه لغضب الكنيسة، واستدعى عالما إنجليزيا ملما بالعلوم العربية واليونانية اسمه "جون أرجيتا"، ومنحه سلطة واسعة في مجال التربية، فوضع مشروعا تعليميا رائدا يمكن إيجازه في 3 نقاط:

-ترك مهمة التدريس في المدارس الأوروبية إلى أساتذة من العرب واليهود الملمين لإلماما واسعا بالثقافة العربية، أو الأوروبيين الذي ذهبوا إلى إسبانيا وتتلمذوا في مدارس عربية

-إرسال أكبر عدد ممكن من الطلاب الغربيين إلى الأندلس، لتلقي العلم على يد العرب، وإعدادهم لتحمل مسؤولية التوسع الثقافي في البلاد

-ترجمة أهم الآثار العربية، وخاصة ما كان متصلا منها بالآداب والعلوم والفنون والطب والفلسفة إلى اللغة اللاتينية التي كانت سائدة آنذاك

ظهرت بسرعة نتائج هذه السياسة الثقافية، وتوطدت العلاقات بين العرب والغرب في الأندلس، وتوطدت أكثر في القرن 9م، بعد أن جلس على الكرسي البابوي البابا "سيلفستر الثاني"، الذي درس في الأندلس واقتنع بقيمة هذه المعارف بالنسبة لأوروبا، فأصدر قرارا يقضي بترجمة الآثار العقلية العربية في مختلف الآداب والعلوم والفنون، وبدأ هو بنفسه ترجمة بعض منها. وكانت هذه المرحلة هي الخطوة الأولى التي خطتها أوروبا في سبيل نهضتها بوساطة الاستشراق، على الرغم من العداء المستمر من طرف الكنيسة.

2. مرحلة التقدم (مرحلة الحروب الصليبية)

بدأت هذه المرحلة مع الحروب الصليبية التي كانت سببا في تحول كبير في العقلية الغربية، فشرعت في دراسة الحياة الإسلامية، فهذه الأمة ناهضة تحررت من قيود بالية كان الغرب مازال مقيدا بها، وانطلقت إلى آفاق جديدة، غير أن العقلية الغربية بدل أن تسلك طريق المعرفة استمر في عدائها للإسلام بسبب توسعه، وهزيمتها في الحروب الصليبية جعلتها تحمل في طياتها مرارة شديدة وعداء أعمق.

أدى قيام الحروب الصليبية إلى التعصب الديني، وانعكست هذه الروح على الاستشراق، فقد بدأ الجاحدون للإسلام الأوروبيين يتعلمون اللغة العربية، لا حبا فيها ولكن ليتخذوها وسيلة إلى فهم القرآن، وسلاحا في مناقشته وقد أدركوا أن المناقشة عن علم، أجدى وأقوى من المناقشة بغير سلاح ولا عدة.

بالإضافة إلى دافع أقوى هو أن الغرب أدرك خلال حروبه الصليبية أن الشرق متفوق عليه فكريا وحضاريا واقتصاديا وإذا أراد أن يتقدم ويتجاوزه عليه أن يسير على النهج نفسه، فزاد اهتمامهم بالحضارة الإسلامية، ومنهم فريديرك الثاني ملك صقلية في القرن 12م، وألفونس ملكة قشتالة في القرن 13م، ثم انتشر الأمر وعقد مؤتمر كبير في فيينا 1311م ترأسه البابا كليمان الخامس وقرر أن تؤسس في باريس وأوكسفورد وبولون مدارس للغة العربية والعبرانية والكلدانية لتخريج وعاظ أشداء يستطيعون تنصير المسلمين واليهود أو تشكيكهم فيما يؤمنون به.

تخرج عدد كبير من الباحثين وهذا كان دفعا كبيرا لظاهرة الاستشراق وكثرت الترجمات، فظهر أوائل من نسميهم بالمستشرقين بالمعنى الحديث الذي تكفلوا بتدريس اللغة العربية لطلابهم وتمكينهم من البحث في الثقافة العربية، وكانت أعمالهم الجادة ذات فائدة للغرب والعرب على حد سواء، في الفترة نفسها التي بدأ فيها تراجع المد الإسلامي وتفكك الأندلس إلى دويلات صغيرة وسقوطها نهائيا سنة 1494م، وهنا انتقل الاستشراق إلى طور جديد ساهم في انتشار الثقافة والعلوم الإسلامية وتعرف الغرب عليها.

وكما قام الاستشراق بفتح المجال للتعرف على الثقافة العربية قام كذلك بالاهتمام بإعادة بعث التراث اليوناني واللاتيني، ذلك أنه على الرغم من معارضة الكنيسة فإن الرهبان كانوا من أوائل الدارسين للغة العربية والمهتمين بالحضارة الإسلامية وترجمة الكتب حتى قبل ظهور الطباعة في القرن 15م. لذلك أحرزت الدراسات الاستشراقية تقدما هائلا في

القرنين 14 و15م، فأصبحت إيطاليا موطن الاستشراق في ذلك الوقت وانتشرت العربية، وانتهت مرحلة تقدم وتوسع الاستشراق بأن أصبح لكل دولة أوروبية تقريبا معاهد تدرس اللغة والحضارة العربية الإسلامية

3. مرحلة الانطلاق (التنظيم والتطور)

توسع الاستشراق في هذه المرحلة على الرغم من استمرار الروح التعسفية ضد الإسلام، فأصبح القرن 16م خطوة عظيمة في هذا الحقل حيث بدأت طباعة الكتب باللغة العربية في قلب أوروبا، مثل قواعد اللغة العربية أو دواوين الشعر، فظهرت أول أجرومية عربية أصدرها بطري دي في غرناطة سنة 1505م وأخذ الرهبان والدارسون يتنافسون في طباعة كتب ونفائس العرب في اللغة والعلوم والفنون. ويعد العلماني السر توماس آدامز أول من أسس كرسيا للغة العربية في جامعة كمبردج سنة 1632، ويأتي في مقابله إدوارد بوكوك الذي فتح كرسيا للغة العربية في جامعة أوسكفورد سنة 1638م.

انقسم المستشرقون في هذه المرحلة، فكان أن استمرت فئة منهم في معاداة الإسلام والانتقاص من شأنه والتشكيك فيه، فيما ذهبت فئة أخرى إلى تعميق دراساتهم وتحقيق المخطوطات ومحاولة فهم اختلاف حضارة الشرق عنهم وتحرير العقل الإنساني من قيود الكنيسة، مما ساهم في تعميق الحوار والتفاهم بين الغرب والشرق

تميزت هذه المرحلة عن غيرها بجمع القواميس العربية وكتب النحو وتحقيق المخطوطات ونشرها بلغتها العربية قبل أن تطبع في الشرق نفسه. فبدأت عملية التنقيب في التاريخ العربي.

كما سرع من نشاط المستشرقين آنذاك امتداد غزو الأتراك لمناطق البلقان، وازدياد عنف صراعهم مع الدول الغربية واستعداد هؤلاء للانقضاض على الولايات العربية التابعة للحكم العثماني والسيطرة عليها، واستعانة الجهتين بالخبراء في ثقافة الشرق، ومن هنا ارتبط الاستشراق بازدياد أطماع الدول الأوروبية في المناطق العربية مثل أطماع الفرنسيين في سوريا ولبنان وشمال إفريقيا، والإنجليز في مصر والسودان والعراق والخليج الفارسي والبحر الأحمر، وإيطاليا في ليبيا وغيرها. فازداد اهتمام الحكام بالاستشراق في القرنين 16و17م بغية معرفة أسرار الشرق وكيفية توجيهه.

ما إن وصل القرن 18م حتى ثبت الاستشراق قدمه في الشرق. وقد بدأت الدول الأوروبية تشق طريقها إلى الشرق الأقصى ورسخت وجودها فيه وحاصرت العالم العربي. وأخذت تتنافس في استعمار واستغلال شعوب آسيا وإفريقيا، وحصلت على ذلك بعد أن أرسلت بعثات تتقصى أحوال هذه الشعوب وإمكانية احتلال أراضيها، مثل دي الميدى المؤرخ اليسوعي، الذي قام برحلته إلى شبه الجزيرة العربية، عام 1633م.

وصل نابليون في أواخر القرن 18م – 1798 – إلى مصر بجيوشه وعلمائه؛ حيث قرر أن يستغل اللغة العربية ليصل إلى أهدافه وهي تكوين دولة شرقية من أجزاء البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية.

علاوة على ذلك شرع المستشرقون في تكوين الجمعيات العلمية، واجتمعت فيها العناصر العلمية والإدارية والمالية، فقد كان لها أهداف استعمارية استغلالية، لكنها ساهمت من الناحية العلمية اسهاما فعالا في اكتشاف كنوز الشرق وأسرار حضارته. ولم تتوقف عند الجمعيات العربية بل اتسعت لتشمل الهند والصين. فاستطاعت بحوثهم أن تكتشف الذهب، والمعادن والحرير والزراعات المحلية وغيرها من الكنوز التي لم يعرفها العالم الغربي. وتم استنزاف هذه الخيرات من بلدانها الأصلية. فبقدر ما قدمت جهودا علمية محمودة بقدر ما زيفت الحقائق حول الدين والحضارة ودسّت سمومها. نذكر من هذه الجمعيات: مجمع العلوم والفنون في باتافيا سنة 1778، والجمعية الآسياوية في مومباي، 1805و المجمع العلمي المصري، سنة 1898.

في أواخر القرن 18م نادى محمد بن عبد الوهاب إلى الدعوة الإصلاحية في الحجاز ونجحت سريعا في الجزيرة العربية وهجومها الجريء على أطراف الدولة العثمانية مما استرعى اهتمام المستشرقين وكثفوا من التبشير.

في القرن 19م حدث أن أصبحت مصر دولة شبه مستقلة تحت حكم محمد علي، فقاوم المد الوهابي، وأرسل أول بعثة من الأزهر إلى فرنسا وفتح المعاهد واستقدم علماء من أوروبا للتدريس فيها.

أما في القرن 20م، فقد ظهر مدّ الثورات في العالم العربي، وانتشر الفكر القومي، الثورة المصرية 1919، واتجه العالم العربي نحو الاستقلال، ومع ذلك استمرت حركة الاستشراق بالنمو والتعمق في دراسة وتحليل تحولات العالم العربي والإسلامي حتى وقتنا الحالي.

4.1.دوافع المستشرقين وأهدافهم

تدفق المستشرقون من علماء ورحالة وفنانين وكتاب إلى الشرق فرادا وأفواجا، اختلفت دوافعهم وأهدافهم –قديمهم وحديثهم–حسب تخصصاتهم وتصوراتهم عن الشرق وعلاقتهم به.

1.4.1. الدوافع

كانت الدوافع الأولى التي أسهمت في توجه المستشرقين إلى عالم الشرق ودراسته طبيعية، ذلك لأن الاحتكاك بين العالمين الغربي والشرقي من الطبيعي أن يوّلد فضولا عند كل باحث لمعرفة العالم الجديد ومحاولة فهمه. لذلك يمكننا أن نعد المحاولات الفردية الأولى كانت بدافع الفضول العلمي والمعرفي، لفهم الحضارات الشرقية بتنوعها واختلافها وثرائها المدهش الذي شدّ إليه كثيرا من المفكرين، وفهم الإسلام تحديدا بعد أن وصل إلى حدود الغرب وفتح أراضيه وأمسى يشكل تهديدا للعالم الغربي بأنظمته وحضارته ودينه، لكن الأمر تطور بعد ذلك بعد أن تدخلت الكنائس في تنظيم عملية البحث وإرسال دفعات إلى الأندلس وإلى الشرق للتعرف عليه أكثر، فظهر أول دافع منسق للاستشراق:

- **الدافع الديني**

يبدو الدافع الديني جليا وواضحا في الاستشراق مع بداية تشكله بصفة منظمة ورسمية بقرار من الكنيسة، لفهم الدين الإسلامي الذي أضحى الدافع الذي يحرك أكبر قوة تزحف بسرعة إلى الأراضي المسيحية وسبب ضعف الممالك المسيحية في التصدي له، لذلك يعزى إلى الرهبان والقساوسة أنهم كانوا أوائل من آمنوا بالتوغل الثقافي في المجتمعات الإسلامية في محاولة لفهمها والتأثير عليها بدأ أن فشلت الحروب الصليبية فشلا ذريعا.

يظهر التاريخ إذن، أن رواد حركة الاستشراق كانوا رهبانا وقساوسة ولم تكن أعمالهم العلمية أبدا بمعزل عن دورهم الكنسي، ومن هؤلاء مثلا: سلفستر الثاني الذي توفي سنة 1003 م، والذي وصل إلى التربع على عرش البابوية، وبطرس المحترم الذي توفي سنة 1156 م، والذي تولى رئاسة مجموعة أديرة منها دير (كلوني) الشهير الذي شهد اختفاء أول ترجمة لاتينية لمعاني القران الكريم، وأدوارد بوكوك المتوفى سنة 1691م الذي شغل منصب قسيس الطائفة الإنجليزية في حلب.

المؤسسات الثقافية الاستشراقية كانت في معظمها مؤسسات كنسية ومن ذلك مثلا: معهد تعليم اللغات الشرقية بفرنسا أنشأه البابا هونوريوس الرابع سنة 1285، والسوربون التي بدأت بهبة من الأب روبردي سوربون كاهن القديس لويس، ثم جدد الكردينال رشيليو بناءها سنة 1926م.

هذا الاهتمام يوضحه الكم الهائل من الدراسات التي اهتمت بالعالم الإسلامي بدءا من ترجمة القرآن الكريم إلى متابعة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحديث النبوي الشريف إلى التشريع والفقه الإسلامي ووصولا إلى الدراسات الخاصة باللغة العربية وغيرها، بحثا منهم عن مداخل للتأثير على المسلمين ومحاولات تنصيرهم باستخدام دينهم ولغتهم ومحاولة الولوج إلى النسيج الاجتماعي الإسلامي في الأندلس وغيرها من جهة، ومن جهة أخرى محاولاتهم لفهم التهديد الذي يشكله الإسلام على العقيدة المسيحية وامتدادها في أوروبا.

- **الدافع الاستعماري**

هيمنت الامبريالية الفرنسية والإنجليزية وأقل منها الإيطالية والإسبانية والروسية على الشرق بأسره، فسحقت في طريقها الاستيطاني حضارات كبرى في الصين والهند والعالم العربي الإسلامي، وقد كان الاستشراق الأداة والسلاح المعرفي الأول الذي اتجهت نحوه القوى الاستعمارية ليزودها بالمعلومات التي تحتاجها للهيمنة على هذه الشعوب، فالمستشرقون هم خير من يعرف تاريخ هذه الشعوب وطرائق تفكيرها، فقد احتاج المستعمرون" إلى الكثير من المعلومات التي تساعدهم في تحقيق تطلعاتهم الاستعمارية وقد وجدوا في المستشرقين قوالب جاهزة، ذات علاقة قوية بالشرق، ومن هنا تم التلاحم بين الاستشراق والاستعمار، وربما لا يعرف الكثيرون أن : نابليون تأثر في وضع خطته بكتاب الكونت دي فولني (رحلة في مصر وسوريا) سنة 1787م، والمستشرق فيلبي الذي ترأس بعثات بريطانية إلى الجزيرة العربية

والأردن، وكانت نتيجة تجواله تزويد أجهزة المخابرات البريطانية بخرائط ومعلومات متنوعة ومهمة، وكذلك شركة الهند الشرقية التي كان لها الدور الأكبر في استعمار إنجلترا للهند".

وهكذا كان للمستشرقين دور كبير في إطلاع القوى السياسية الكبرى في بالغرب عن هذا الشرق وخيراته وأديانه ونقاط قوته وضعفه، ولم يدم الأمر كثيرا حتى بدأت هذه القوى بالتفكير في الهيمنة على الشرق وإعلان سيطرتها عليه، وهو الأمر الذي يعترف به المحدثون من المستشرقين أنفسهم، فها هو برنارد لويس يقر بالنزعة الامبريالية لأوروبا، فـ"في أواخر القرن الخامس عشر، بدأت الشعوب الأوروبية حركة توسع عظيمة أدخلت العالم أجمع-بدرجات متفاوتة —في فلك الحضارة الأوروبية بحلول منتصف القرن العشرين. وحدث التوسع الأوروبي في كلا الطرفين — من الغرب بحرا، ومن الشرق برا. وفي بعض المناطق، أدى هذا التوسع إلى الهيمنة وإلى استيعاب الشعوب البدائية أو إقصائها، وإلى استيطان الأوروبيين الغربيين والشرقيين ما كان ينظر إليها على أنها أراض خاوية."

وإذا أقر الغرب بهذا السلوك الاستيطاني للغرب فإن الباحث العربي لم يغلفه أيضا، إذ تم تفسير هذا النزوع العدواني للغرب بتفسيرات عديدة لكن أهمها أن الغرب طور صورة دونية الشرق وعزز شعوره بالتفوق الفكري الذي جعله يفكر أن الشرقي لا يملك أن يَحكُم بل أن يُحكمَ، و"من هنا كان اهتمام الغرب بالشرق لتعميق فوقيته وإقناع الشرق بدونيته. وعلى أساس منظور نظرية العرق التي تبنت "دونية الشرق" كانت صورة الشرق الخرافية أو الميثولوجية في مقابل الوجه الآخر للعقلانية الغربية التي بدأت من القرن الثامن عشر في خلق واقع اجتماعي بعينه، وفي تطور معايير فلسفية، وصور حضارية تتفق مع الدينامية السائدة في الاقتصاد والتكنولوجيا الغربية."

ويمكن أن نضرب مثالا لذلك ما كتبه المستشرق أوجيست موليراس (1855 – 1931) بأنّه في كتاب: "المغرب المجهول" بجزأيه الأوّل حول اكتشاف الريف والثاني حول اكتشاف جبالة، وفيه يصرح بأنّ عمله يهدف إلى اكتشاف المغرب المجهول بالنسبة إلى الأوروبيين، يقول في هذا الصدد: "لقد ناقشت مرارًا المسألة المغربية مع أعيان فاس ومراكش القلقين جدًّا وعن حقّ، على مستقبل بلدهم. والنتيجة التي توصّلنا إليها، قد تقدّم لفرنسا امتيازات لا تحصى وللمغرب منافع لا تقدّر بثمن. ولن تراق قطرة دم واحدة للوصول إلى هذه النتيجة! غير أنّ الزمن لا يرحم، وخصومنا يعملون دون هوادة لمضاعفة تأثيرهم داخل هذا البلد الرائع الذي يستحضرون ثروته وأهميته." وبعد مرور أقل من عقدين من صدور هذا المؤلف سنة 1895 في وهران بالجزائر، سوف تتمكّن الإمبراطورية الفرنسية من احتلال المغرب وإخضاعه لنظام الحماية منذ سنة 1912، ممّا يؤكّد أنّ جهود المستشرقين ومساعيهم المبذولة، ومنهم موليراس، سرعان ما أتت أكلها في زمن قياسي.

كما أن هذا النزوع نحو استبعاد الشرقي لم يكن فكرة حديثة وإنما يرى إدوارد سعيد وغيره كثر أنها كانت نتاج تراكم زمني وفكري؛ حيث لم يكن اختراق الشرق مجرد فكرة طارئة مفاجئة مثيرة خطرت للغرب بعد سنوات من الدراسة

العلمية لآسيا، وإنما كان ذلك عبر خطوات كثيرة تتسم بطول المدى وبطء الحركة أدت إلى امتلاك الشرق، تم فيها التحول من وعي يقوم على النصوص والتأمل إلى ظاهرة إدارية واقتصادية بل وحربية

نستنتج من ذلك أن ما فعله الاستشراق في مرحلته الأولى بوصفه ظاهرة علمية هو النحت داخل الوعي الغربي فكرة تفوقه على الشرق وأحقيته بامتلاكه والسيطرة عليه، نظرا لأن الإنسان الذي يملكه ليس مؤهلا لإدارته، وبذلك تحول الاستشراق من مجرد اهتمامات علمية بالحضارات الشرقية ودياناتها وثقافتها إلى مؤسسة إدارية للتمهيد إلى حرب استنزاف الشرق التي دامت طويلا ولم تنته بعد للأسف.

- **الدافع الاقتصادي**

يرتبط الدافع الاقتصادي بالدافع الاستعماري مباشرة؛ حيث تشير المصادر أن المستشرقين أسهموا في وضع مؤلفات رسم خريطة الأمصار الشرقية وما تزخر به من ثروات باطنية، مما فتح أعين الغرب على خبايا المنطقة وإمكانياتها الاقتصادية، وقد استمر ذلك إلى ما بعد الاستعمار، فقد استقلت البلدان لكنها ما تزال تحت سطوة الغرب، الذي جعل منها أسواقا لمنتجاته من السلاح إلى أبسط المأكولات والألبسة، وبذلك يتم تجاهل الإمكانيات الاقتصادية المحلية، بمقابل التبعية الاستهلاكية للغرب.

يقول إدوارد سعيد في معرض حديثه عن سيطرة النظرة الاستشراقية للشرق: "غير أن هذا كله في اعتقادي ضئيل بالمقارنة مع العامل الثاني الذي يسهم في انتصار الاستشراق: وهو حقيقة طغيان الاستهلاكية في الشرق، فالعالم العربي أو الإسلامي عامة عالق في صنارة نظام السوق الغربي، وما من أحد يحتاج إلى التذكير بأن النفط، المورد الأعظم للمنطقة، قد امتص امتصاصا كاملا ضمن اقتصاد الولايات المتحدة"، وإذا كان العالم الشرقي يملك كل هذه الموارد الاقتصادية فإن التنازل عنه غير ممكن وهذا ما يبرر صراع الدول الغربية على مصالحها داخل المنطقة قديما وفي وقتنا الحالي.

- **الدافع العلمي**

لا شك أن الدف العلمي كان الهدف الثاني بعد الهدف الديني فيما يخص بدايات الاستشراق، ذلك أن كثيرا من الأوروبيين بعد فتح الأندلس كانوا يذهبون إليها لتلقي العلوم الشرقية الإسلامية تحديدا، في كل ميادينها، تدفعهم الرغبة في التعرف على الآخر القادم من الشرق وعلى المعارف التي سمحت له أن يكون قوة تدق أبواب أوروبا بقوة لا حدود لها،

وعدّ العالم العربي كنزا حضاريا لا نظير له فهو موطن الديانات وشرائع متنوعة، وحضارات شغلت العالم قديما وحديثا ونشأت فيه لغات وفلسفات وولدت علوم وفنون، فانشغل علماء الغرب بدراستها واكتشاف أسرارها، وقد أخذ الإسلام اهتماما خاصا، فحاول هؤلاء فهم الأسباب التي كانت خلف نجاح رجاله وقدراتهم العلمية والعسكرية

هذه الرغبة في الاطلاع والمعرفة بدأت فردية بالفعل لكنها سرعان ما تحولت إلى حركات منظمة من طرف الدول الأوروبية في شكل بعثات علمية إلى الأندلس وبعدها إلى الشرق كله، "وقد استفادت أوروبا من هذه البعثات العلمية فائدة لا تقدر؛ حيث أصبح أفرادها بعد عودتها من الأندلس شعلة علمية تضيء غياهب أوطانها ومجاهل أراضيها وأخذت تنشر العلوم والفلسفات والآداب والحقائق فدفعت بشعوبها إلى الأمام خطوات جبارة لا يمكن التغاضي عنها عند النظر في تطور العلم في العالم وأثرها في النهضة الأوروبية المعروفة التي أثرت هي بدورها "

وهذا الدافع العلمي إن كان في أحيان كثيرا معززا بالجانب الإيديولوجي والديني الذي قدّم أعمالا متزمتة اتجاه الدين الإسلامي وكل ما هو عربي مثل أعمال المستشرق اليهودي "جولدسيهر" فإن قدم للعلم دراسات التزمت الحياد، بل ووصل أصحابها إلى اعتناق الإسلام أيضا، مثل دراسات:

-المستشرقة الإيطاليا لورافيشيا فاغليري (دفاعا عن الإسلام) و(قواعد اللغة العربية).

-المستشرق الألماني يوهان جاكوب ريسكه (رسالة ابن زيدون إلى ابن عبدوس) و(لامية العجم للطغرائي)

-المستشرق النمساوي ليوبولد فايس (محمد أسد): (أصول الفقه الإسلامي) و(الإسلام على مفترق الطرق)

-المفكر الفرنسي روجي غارودي: (لماذا أسلمت؟) و(الإسلام دين المستقبل)

2.4.1. الأهداف

أهداف المستشرقين في هدفين مهمين: هدف بنائي وهدف هدمي

الهدف البنائي: يتمثل في إقبال المستشرقين على التراث الإسلامي جمعا ودراسة، وتحقيقا ونشرا وترجمة بقصد الاستفادة العلمية من علوم ومعارف الأمة، العربية التي وصلت أعلى سلم التقدم العلمي عند قيام حركة الاستشراق، ولكن استفادتهم وقفت عند الحد المعرفي ولم تتجاوزه إلى الجانب العلمي التطبيقي.

الهدف الهدمي: يراد به هدم أواصر الترابط بين إنسان هذه الحضارة وبين عقيدته، من اجل ألا تجدد هذه الحضارة التي أريد لها الاندثار، ليخلو المجال لحضارة الغرب المادية، وتحقيقا لهذا تتابعت الدراسات غير العلمية التي قدمت التراث الإسلامي في شكل مشوه اعتمد على الحذف والتغيير وسوء الاستنتاج، وتفسير الوقائع على غير حقيقتها وحتى على الكذب والتزوير المتعمد أحيانا. وتزامن ذلك مع مساعدة المد الاستعماري على دخول البلاد العربية.

5.1. مجالات الاستشراق

يجمل أحمد سمايلوفيتش في كتابه "فلسفة الاستشراق" مجلات الاستشراق في العالم الإسلامي بقوله: "انكب المستشرقون على دراسة حضارة الإسلام العظيمة، بما فيها من دين سمح ولغة غنية وأدب يصور خلجات النفوس ونجوى الضمائر، ومن تصوف وفناء في التأمل ومن فلسفة قد بلغت الغاية في عمقها وشمولها. ومن حكم وتشريع لم تصل إليه الإنسانية إلى أفضل منه".

ويمكننا أن نأخذ عينات من هذه المجالات على النحو الآتي:

1-الإسلام وعلومه:

أخذ الإسلام مساحة كبرى من اهتمامات الدارسين، فتتبعوا تاريخ ظهوره ونظامه، وسياسته وانتشاره وفلسفته، وإذا قلنا ذلك بشكل عام فإنهم لم يتوقفوا عند العام من العلم بل تجدهم درسوا القرآن الكريم (تاريخ ترتيبه، ووحيه، وجمعه، وتفسيره، وترجمته، وأسلوبه ولغته وبشريته وألوهيته وأثره في اللغة والأدب والفكر واعتباره مصدرا رئيسا للشريعة ومعاملاتها ومقارنته بالديانات الأخرى...إلخ.) والحديث النبوي الشريف (اهتم بدراسته من حيث تاريخه، وجمعه، وتدوينه، وحقيقته وأهميته وروايته وروّاته، ومنزلته، واعتباره مصدرا من مصادر التشريع)، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم (شخصيته، ونبوته، وتشريعاته، وعلاقاته العامة والخاصة، وأخلاقه ومعاركه، وخطبه ورسائله، ودعوته وجهاده، وفتوحاته وأصحابه، وزوجاته).

2-العرب (تاريخهم ولغتهم): درس الاستشراق قبائل العرب قبل ظهور الإسلام وبعده، ودوره التاريخي والتشريعي، الأسر الحاكمة ودور العرب في الحضارة، المسلمون وحضارتهم من حيث التأثير والتأثر، سياساتهم ونظمهم العلمية والاقتصادية والاجتماعية، مناهج تعليمهم ...إلخ. وتم التركيز كثيرا على اللغة العربية، فقد حرص على دراسة كل ما يتصل بها من قريب أو بعيد، فبحث في فقهها وأصواتها ولهجاتها ونحوها وصرفها، وأصولها ومعاجمها، وأطوارها وغزارتها، ومادتها، وفلسفتها، علاقتها باللغات الأخرى، وخاصة اللغات السامية، ومميزاتها وعناصره، وتاريخها، ونقوشها...إلخ.

3-الفلسفة: اهتم الاستشراق بالفلسفة الإسلامية، بأقسامها الثلاثة: الكلام، التصوف، والأخلاق، فاهتم بدراسة مصادرها وتاريخها وعناصرها وخصائصها وعلاقتها بالفلسفات العالمية الكبرى قديما وحديثا ومذاهبها وعلاقتها بالدين.

4-الحضارة العربية الإسلامية: اهتم بتاريخها وتطورها ومعابرها إلى أوروبا، وفضلها على تطور الغرب في كل الميادين: العلم، الفلسفة، الأدب، البحث العلمي، الرياضيات، الفلك، الرحلات، التجارة، الطب، الصيدلة، الفنون، التعليم، الجامعات، الأخلاق، الصناعات ...إلخ.

5-الأدب العربي: درس كل ما يتعلق به، من تاريخه، وتطوره، وقيمته وأصالته، وعصوره، ونهضته وتأخره، وازدهاره، وانحطاطه، وانتحاله، وسرقاته، وتأثره وتأثيره، وأعلامه وشعراءه، وكتابه، كانت العناية به أشد شغفا وانتشارا بين المستشرقين، لأنهم حاولوا من خلال فهم الشخصية العربية وتفكيرها وأسلوب حياتها ومكامن ضعفها وقوتها.

6-تاريخ الشرق في عمومه: استهدفت حركة الاستشراق أولا دراسة تاريخ الشرق وحياته وخصائصها مثل العرب والفرس والصين والهند وغيرهم، فعالج المظاهر المختلفة لهذه الحضارات من ثقافة وعلوم وفلسفة وديانات. والحضارات الشرقية القديمة مثل البابلية والآشورية والفرعونية ...إلخ.

نماذج عن كتب المستشرقين في مختلف التخصصات المذكورة:

-سير توماس أرنولد: لديه كتبه عديدة منها: الدعوة إلى الإسلام، تر: حسن إبراهيم (1971)، وجاء فيه التعريف بالإسلام وانتشاره في العالم، القرآن الكريم وحياة محمد (ص).

-أغناس جولد سيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، تر: محمد يوسف موسى وآخرون، وخاصة الفصل المخصص لتطور الفقه، حيث دراسة تقدم الإسلام في حكم الخلفاء الراشدين، في التشريعات الداخلية والخارجية؛ حيث يقول:" إن أهم أغراضنا هو فقط معرفة هذه الحقيقة: وهي أنه بناء على الحاجة الضرورية في الحياة العامة بدأ تطور الفقه الإسلامي مباشرة بعد وفاة النبي" كما يقول:" القرآن نفسه لم يعط من الأحكام إلا القليل ولا يمكن أن تكون أحكامه شاملة لهذه العلاقات كلها مما جاء في الفتوح، فقد كان مقصورا على حالات العرب الساذجة، ومعنيا بها بحيث لا يكفي لهذا الوضع الجديد"

-أول ترجمة للقرآن الكريم باللغات الأوروبية كانت باللاتينية، وقد تمت بإيعاز وإشراف رئيس دير 'كلوني' في جنوب فرنسا الراهب 'بطرس المبجل'، وهذا اسمه وكان ذلك سنة 1143م، وعلى يد راهب إنجليزي يدعى 'روبرت الرتيني' وراهب ألماني يدعى 'هرمان'". ثم توالت الترجمات بعد ذلك، الإنجليزية ثم الفرنسية وغيرها.

-أبرز ما ذكر في ترجمة القرآن الكريم ما قاله"أوبري": "باختصار فإن البلاغة والإيقاع العربيين في القرآن ذات ميزات خاصة، قوية إلى درجة وكذلك عاطفية بحيث أن أي ترجمة مهما كانت طبيعتها هي مقيدة بطبيعة الأشياء ألا تكون سوى نسخة فقيرة عن فخامته المتلألئة للأصل... أنا ألح على الرأي القائل بأن عملا خالدا كالقرآن لا يمكن ان يفهم بصورة أحسن لو أنزلناه إلى تجربة النقد الدنيوي. إنه أمر خارج عن الموضوع أن تتوقع المواضع المطروحة في السور المستقلة سوف تنظم بعد عملية إحكام رياضي بعض الشيء ليشكل نموذجا منطقيا. إن منطق الوحي ليس منطق رجال المدرسة ليس هناك (قبل) و(بعد) في رسالة النبي، عندما تكون هذه الرسالة صادقة، فإن الحقيقة الدائمة لا يمكن أن تحصر داخل إطار زمني أو مكاني، ولكن كل لحظة تعرض نفسها بشكلي كلي مطلق"

-إيميل درمنغم، حياة محمد، تر: عادل زعيتر، تناول فيه حياة محمد (ص) في العهد المكي (عام الفيل، خديجة، البعثة، التعذيب، إسلام عمر وحمزة، النصرانية والإسلام، عام الحزن) والعهد المدني (هجرة النبي (ص)، غزوة بدر، مكة واستعدادها للثأر، زواج ابنته فاطمة من علي رضي الله عنه، اليهود، معركتي أحد والخندق، أركان الإسلام، زوجات الرسول، فتح مكة، حجة الوداع، الوفاة)

-برنارد لويس، العرب في التاريخ، تر: محمود يوسف زايد وآخرون، تناول فيه: العرب قبل الإسلام، محمد وظهور الإسلام، عصر الفتوح، الدولة العربية، الإمبراطورية الإسلامية، العرب في أوروبا، الحضارة الإسلامية، العرب في دور التأخر.

-يوهان فاك: العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، تر: عبد الحليم النجار، درس العلاقة بين الإسلام والعربية، وخصائصها، تطورها وسيطرتها على العالم العلمي والفكري، لهجاتها، مشكلة اللحن ...إلخ

-أنيست كونل، الفن الإسلامي، تر: أحمد موسى، درس فيه تاريخ الفن في عصره الأول، ثم العهدين الأموي والعباسي والفن في القرون الوسطى، الفن الفاطمي، الفارسي، المغولي، المملوكي، المغربي...إلخ

-كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الرحيم النجار، درس فيه الأدبي العربي منذ أيامه الأولى إلى منتصف القرن 20م

2. مدارس الاستشراق

1.2. المدرسة الإسبانية

تعد إسبانيا أقوى دول أوروبا صلة بالشرق، لقربها الجغرافي منه أولا، ولاحتضانها أعظم حضارة أسسها المسلمون دامت قرابة خمسة قرون كانت من القوة؛ بحيث تركت أثارها ماثلة في الحياة الإسبانية على مختلف الأصعدة حتى يومنا هذا. بدأ اهتمامهم بالعرب منذ القرن 8م ووصل ذروته في القرن 12م.

سمات الاستشراق الإسباني:

1-الدافع العلمي هو المحرك الأول للاستشراق الإسباني، إلى جانب ذلك يبرز الدافع الديني المتمثل في المستشرقين الرهبان الذين يشكلون تيارا مهما في ميدان الاستشراق الإسباني.

2-يكاد الاستشراق الإسباني أن يكون مشابها للاستشراق الألماني في التركيز على التراث العلمي العربي، والاهتمام به حفظا وفهرسة وتحقيقا ونشرا، ولعله امتاز عنه بامتلاك جزء كبير من هذا التراث في المكتبات الإسبانية.

3-على الرغم من أن القرن العشرين شهد انخفاضا واضحا في العمل الاستشراقي من حيث المستوى الكمي، إلا أننا نجد شذوذا عن ذلك في الاستشراق الإسباني، يمثله عدد من المستشرقين الإسبان وفي طليعتهم العالم الكبير آسين بلاسيوس الذي خلف ما يقرب من مائتين وخمسين كتابا وبحثا بعضها في عدة مجلدات، وكذلك غونزاليث بلانسيا الذي خلف ما يقرب من ثلاثمائة وعشرين كتابا وبحثا، وهذا عدد يذكرنا بما تميز به الألمان في مراحل الاستشراق الأولى من تفرغ للبحث والانتاج العلمي.

4-له نشاط ملحوظ في ترجمة الكتب العربية ونشرها، وهو الأمر الذي كان له إلى جانب الاستفادة العلمية الأوروبية أثر في تعريف الإنسانية بالفكر العربي الإسلامي، ومن أشهر المترجمين أميلو غرسياغومث.

5-الفلسفة والتصوف والأدب والتاريخ أبرز الميادين التي ركز عليها المستشرقون الإسبان وأنتجوا فيها مؤلفات كثيرة، ومن البارزين في هذه الميادين بلاسيوس وريموندو، والأب داريو.

6-فهرسة المخطوطات العربية أحد المجالات التي اهتم بها المستشرقون الإسبان، وكان لهم فيها دور واضح، ومن الأسماء اللامعة في الفهرسة : غينغوس، وسلفا دور غوميث، وألاركون.

7-يشترك مع الاستشراق الإيطالي في وجود الكثير من المستشرقات وخاصة في العصر الحديث الذي سهد انضمام الكثير منهن إلى حقل الاستشراق، ومن أبرزهن رفائيلا ماركيث، وماريا فاثكيث، وخواكينا إيبانيث، وغيرهن كثير.

8-له مساهمة فعالة في النشاط الصحفي الاستشراقي، وذلك من خلال مجموعة هائلة من المجلات الاستشراقية التي تصدر في إسبانيا، وأهمها مجلة الأندلس ومجلة إفريقيا، ومجلة المنارة، ومجلة منتجات من الدراسات العربية والعبرية إلخ.

9-يعتبر المعهد الإسباني العربي للثقافة الذي يديره المستشرق آسين بلاسيوس واحدا من أهم مكانين نشط فيهما الاستشراق الإسباني، كما تعد مكتبة الأسكوريال أهم المكتبات التي انطلق منها، وذلك لما تحويه من نفائس التراث العربي الإسلامي.

2.2. المدرسة الإيطالية

لم يظهر الاهتمام الرسمي لإيطاليا بالدراسات الشرقية إلا منذ القرن 11م، وبدأت هذه الدراسات في جامعة نابولي سنة 1076م، ثم تبعتها بقية الجامعات الأخرى.

سمات الاستشراق الإيطالي:

1-بدأ الاستشراق الإيطالي رحلته بهدف ديني، ومعظم مؤسساته نشأت بجهود رهبان، ونذكر من هؤلاء: البابا غريغوريوس الثالث عشر الذي أنشأ الكلية المارونية في روما سنة1584 م، وفي سنة 1623 أسس الكردينال دي ميتشي مدرسة اللغات الشرقية في فلورنسا، ثم تطورت أهدافه إلى استعمارية، مما أدى إلى احتلال ليبيا والحبشة والصومال، ومرت به في رحلته أهداف علمية تمثلت في ذهاب الكثير من الإيطاليين إلى مراكز الحضارة الإسلامية طلبا للعلم

2-كانت فترة الحكم العربي لصقلية تمثل إغراء كبيرا للمستشرقين الإيطاليين في التخصص في الجوانب الإسلامية والعربية، ونظرة على مؤلفات كايتاني وسانتيلانا ونللينو وغيرهم تعطي دلالة واضحة على ذلك. فقد ساهم بجهد متواضع في نشر التراث الإسلامي والاهتمام به حفظا وفهرسة وتحقيقا.

3-تمكن بعض أعضائه من الرحيل إلى المشرق والعيش فيه والتدريس في جامعاته وخاصة مصر، وقد تتلمذ عدد من قادة الفكر العربي عليهم، وأذكر منهم على سبيل المثال طه حسين الذي درس على المستشرق نللينو.

4-تمكن بعض المستشرقين الإيطاليين من نيل شرف عضوية أكثر من مجمع علمي في وقت واحد، ومن هؤلاء:كارلو نللينو وفرانشيسكو غبريالي(Francesco Gabrieli) ، شغل مناصب علمية متعددة منها عضوية المجمع العربي في دمشق والمجمع اللغوي في القاهرة. من مؤلفاته: تاريخ الأدب العربي / عالم الإسلام/ خصائص الحضارة العربية

الإسلامية... الخ وانياتسو جويدي (Ignazio Guidi)الذي عيّن أستاذا للأدب العربي في الجامعة المصرية، أتقن العربية وحاضر بها .أشهر كتبه تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام.

5-تميز الاستشراق الإيطالي عن غيره بوجود الكثير من المستشرقات اللاتي أسهمن بجهد وافر في مجال الدراسات الشرقية، ومن هؤلاء ماريا نللينو، وأنجيلا كوداتزي...إلخ.

6-من مميزاته أيضا وجود ما يسمى بالوراثة العلمية، ففي مجال الاهتمام بالدراسات الشرقية نجد الأبناء يسيرون على خطى ابائهم ويكملون ما بدأوه ويجمعون ما عملوه، وكمثال على ذلك جويدي وابنه ميكلنجلو وغبريالي وابنه فرنشيسكو ونللينو وابنته ماريا.

7-لا يكاد يوجد له أثر واضح في غير الدائرة العربية، أي إنه لم يهتم بأجزاء الشرق الاخرى وخاصة الشرق الأقصى.

8-اهتم أخيرا بإنشاء كراسي الدراسات الشرقية والمعاهد الشرقية المتخصصة والمجلات والمعارض التي تهتم بالشرق، وكذلك أسس مجموعة من المراكز الثقافية في مجموعة من الدول العربية.

3.2. المدرسة الفرنسية

ترجع صلة الفرنسيين بالشرق إلى أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، حينما غزا العرب المقاطعات الفرنسية وازدادت هذه العلاقة بوجود الدول الإسلامية في الأندلس، ثم بحملة نابليون على مصر، وأخيرا باحتلال فرنسا الكثير من البلاد الشرقية. ولقد تعاظم اهتمامها بالشرق منذ أن تعاظم الدور البريطاني في الهند، فألهب حماس الفرنسيين وجعلهم يبحثون عن دور مماثل.

سمات الاستشراق الفرنسي:

1-تتركز دراساته حول ثلاثة محاور: الدين، السياسة والاستعمار.

2-يعتبر معهد اللغات الشرقية الذي أسس سنة 1195 م أهم مكان ترعرع فيه الاستشراق الفرنسي.كما نشأت معظم الجامعات والمعاهد الفرنسية التي تعنى بالدراسات الشرقية بجهود رهبان وقساوسة وتولى هؤلاء إدارة الأمور فيها.

3-كان لجامعة السوربون ذات الشهرة العالمية أثر واضح في تنشيط الدراسات الشرقية في فرنسا.

4-أسس كثير من المعاهد والمدارس والمراكز الثقافية في بلاد الشرق التي كان لها تأثير كبير في فرنسا عدد من هذه البلاد خاصة التي استعمرت من قبل فرنسا .

5-يمتاز بالتخصص، أي إن معظم أفراده تخصص كل منهم في جانب معين من جوانب البحث والدراسة.

6-من مميزاته أنه قام بفهرسة الكثير من الكنوز الشرقية من مخطوطات ووثائق وغيرها سواء ما كان منها في فرنسا أم في غيرها من البلاد التي وقعت تحت الاستعمار الفرنسي.

7-اهتم منذ البداية بكل ما يتعلق بالشرق عموما، ولم يخص الإسلام أو العربية وحدهما أو يركز عليهما.

8-يعد المرجع الأوروبي الأول عن الأبحاث والدراسات الخاصة بالطوارق والبربر، وتركز مستعمراته في إفريقيا ساعده على ذلك، واهمامه بهذا النوع من الدراسات لا يخلو من نوايا استعمارية سيئة.

9-ترك بصماته الواضحة على التعليم في إفريقيا، وخاصة في شمالها، وتم ذلك عن طريق ما أتيح لأعضائه من فرص في التدريس والتوجيه التربوي وتخطيط المناهج وغيرها.

10-ضم بين صفوفه الكثير من ضباط القوات المسلحة الفرنسية، ونذكر من هؤلاء جاكو، ومونتان، وبرشيه وغيرهم.

11-مونتان (Montagne. R) (1893-1954) : أحد المستشرقين الفرنسيين الذين عملوا في صفوف الجيش الفرنسي، شغل عددا من المناصب الحلمية منها مدير المعهد الفرنسي بدمشق، خلف عددا لا بأس به من الآثار منها : الشرق والغرب وشمالي افريقيا/ تنظيم قبائل البربر المستقلة تنظيما اجتماعيا وسياسيا، حياة البربر السياسية في المغرب. الخ

4.2. المدرسة الإنجليزية

لعب الهدفان التنصيري والاستعماري دورا بارزا في مسيرة الاستشراق البريطاني.

سمات الاستشراق الإنجليزي

1-ركز دراساته على اللغة العربية وما يتصل بها من أدب وبلاغة ونقد وغيرها من العلوم الأخرى

2-تركزت أبحاثه واهتماماته حول الهند ومصر وبعض بلاد الشام.

3-تعتبر جامعتا كامبردج وأكسفورد أهم مكانين نشأ وترعرع فيهما الاستشراق البريطاني.

4-انخرط بعض المستشرقين الإنجليز في السلك العسكري والدبلوماسي وعملوا ضباطا أو مستشارين في وزارتي الخارجية والمستعمرات البريطانية، من هؤلاء ريتشاد بورتون، وواطسون، ونورمان دانييل وغيرهم.

5-أثر اكتشاف النفط في بعض البلاد الشرقية في ازدياد الاهتمام البريطاني، بالعالم الشرقي، وبالتالي ازدياد المعاهد والمؤسسات التي تعنى بتفهم ودراسة اللغات الشرقية وعلى رأسها اللغة العربية.

5.2. المدرسة الألمانية

كانت بدايته متأخرة جدا إذا ما قورنت ببدايته في بعض البلاد الأخرى، ولم يعرف أي نشاط يذكر الاستشراق الألماني في القرن الثامن عشر.

نقطتان جديرتان بالاهتمام في الاستشراق الألماني:

1-لم يكن للألمان مستعمرات في البلاد العربية، ولذلك نجا مستشرقوهم من الخضوع للسياسة.

2-أن الألمان لم يحاولوا التنصير، ولذلك نجا مستشرقوهم من العبث بالتاريخ الإسلامي.

سمات الاستشراق الألماني:

1-اتصف المستشرقون الألمان بالتفاني في العمل والصبر، فمنهم من فقد بصره مثل وستنفلد، ومنهم من أفنى عمره باحثا ومنقبا مثل يوهان رايسكه "شهيد الأدب العربي."

2-التركيز الكبير على نشر التراث الإسلامي بدرجة يستحيل معها أن يخرج مجمع علمي ما أخرجه مستشرق واحد. واهتم أكثر من غيره بنشر المخطوطات وتحقيقها وفهرستها، حتى إن بروكلمان مثلا استغرق نصف قرن في وضع كتابه "تاريخ الأدب العربي."

3-اهتم أكثر من غيره بوضع المعاجم العربية، أو العربية اللاتينية، أو العربية الألمانية، ويبرز في هذا المجال أسماء كثيرة مثل: قريتاج :(1788-1861) (Freytag Geaorg Wilhelm) نشر كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عرب شاه، وكتاب وصف الشام ووصف فلسطين للأدريسي. ونولدكه :(1836-1970) (TH.Noldeke) خلف مؤلفات يصحب الإتيان على وصفها ونذكر نتفا منها وهي: أصل وتركيب سور القرآن، دراسات في قواعد اللغة العربية الفصحى، كما نشر العديد من الكتب التراثية ومنها: شرح وترجمة ونشر ديوان عروة بن الورد /أسهم في نشر تاريخ البلدان للطبري ... الخ

4- قام بعض أعضائه بالتدريس في بعض الجامعات العربية وخاصة في مصر، ومن هؤلاء:

- أنو ليتمان :(1875-1958) (Littmann, Enno) نال شرف عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة، أول من ترأس جمعية المستشرقين الألمان - ترك عددا كبيرا من الأعمال أهمها ترجمته المهمة لكتاب ألف ليلة وليلة إلى الألمانية.
- جوتهلف برجستراسر :(1886-1933) (Bergstrasser Gotthelf) اهتم باللغة العربية والدراسات الإسلامية، خلف عددا من الآثار منها: أطلس اللهجات العربية / حنين ابن إسحاق ومدرسته/ حروف النفي في القرآن/ معجم قراء القران وتراجمهم.

5-اهتم بالبحث عن الآثار والتنقيب عنها، وأنشأ لذلك معاهد في بعض البلاد العربية وخاصة بيروت والقاهرة وبغداد.

6-كان الحماس الذاتي طابعا مميزا لبعض المستشرقين الألمان، وخاصة القدماء منهم فقد كان بعضهم ينشر النصوص العربية ويطبعها على نفقته، ووصل الحماس ببعضهم أنه أتقن ما يقرب من خمسين لغة ولهجة، وخير مثال على ذلك: فريدريش روكرت.

7-تتلمذ كثير من مشاهيره على المستشرق الفرنسي -دي ساسي – ومن هنا يكمن تسلل الأثر الديني الذي طرأ على الاستشراق الألماني، نذكر منهم: فرايتاج وفلوجل وفلايشر.

8-ظل حتى بداية القرن التاسع عشر يهتم بالدراسات اللغوية والأدبية فقط دون غيرها وبعده ركز على الدراسات الإسلامية، وتتابعت منذ ذلك الوقت دراسات الالمان حول الإسلام.

9-أثر ظهور النفط في بعض البلاد الشرقية، وازدياد الارتباط التجاري بين ألمانيا وغيرها من البلاد العربية في الانحراف بالاستشراق إلى دراسة اللهجات المحلية والتركيز عليها كوسيلة لتوثيق الصلة مع هذه البلاد.

6.2. المدرسة الروسية

وترجع صلة الروس بباقي دول الشرق، وبالأخص الدول الإسلامية منها، إلى القرن الثاني عشر، وذلك حين وصف حجاج بيت المقدس رحلاتهم إلى تلك الأماكن، ومن أشهرهم رحلة الأب دانيل (1106-1108م). ولم يظهر الاهتمام العلمي بالشرق إلا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر الذي شهد بداية الدراسات العربية المنتظمة، وازداد هذا الاهتمام بالشرق -خاصة الجزء العربي منه – إثر ازدهار العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وبعض البلدان العربية التي لا زالت قائمة إلى الآن.

سمات الاستشراق الروسي:

1- بدأ الاستشراق الروسي في الاهتمام باللغات الشرقية قبل الثورة البلشفية، وكان للاستشراق الألماني دور واضح في تكوينه.

2-اهتم كثيرا باللغات دون غيرها، وخص بالدراسة لغات اسيوية لم يهتم بها الاستشراق الأوروبي كثيرا، وذلك مثل التركية والصينية والمغولية والأرمينية والكردية والفارسية وغيرها.

3-ركز اهمامه أيضا على الأدب العربي نثرا وشعرا، نذكر من كتبهم مائة وأربعة وعشرين كتابا في ثلاثين لغة من لغات الاتحاد السوفياتي، ومن أعلام المدرسة الأدبية:

- كرتشوفسكي :(1883-1951) (Krackovskij) تعلم عددا من اللغات الشرقية ومنها العربية، اهتم بالأدب العربي وبأبي العلاء المعري خاصة وله في ذلك كتاب، نشر عددا كبيرا من المخطوطات العربية من أهمها كتاب (البديع/ لابن المعتز (وكتاب)الاعتبار/ لابن منقذ (من أهم أبحاثه: نشأة وتطور الأدب العربي الحديث، أدب المهاجرين العرب في أمريكا، الكتّاب الروس في الأدب العربي.

4-نظرا لكثرة المخطوطات الإسلامية في روسيا فقد اهتم المستشرقون الروس بفهرستها ووصف كل الآثار القديمة، ومن أبرز المفهرسين: إيفا نوف، وروما سيكفيتش.

5-ظهرت فيها المطابع الشرقية مبكرا ونتج عن ذلك طبع الكثير من نفائس الكتب في مختلف المجالات، ومن أشهرها مطبعة قازان وبطرسبرج.

6-للاستشراق الروسي نشاط واضح في إصدار المجلات الشرقية والمتخصصة، ولا زالت مجموعة منها تصدر إلى الآن، ونذكر منها: مجلة الرسائل وعلم الإسلام، والآداب العالمية، والحوليات الشرقية.

7-ليس له اهتمام واضح بالدراسات الإسلامية إذا ما قورن بغيره من الاستشراق الأوروبي وله مساهمات واضحة في دراسة اللهجات نتج عنها دراسات متعددة في لهجات مختلفة.

3. دراسة المستشرقين للأدب العربي القديم

تناول المستشرقين الشعر الجاهلي بوصفه موضوعا غنيا بمظاهر الحياة العربية، فظهرت فيه تصانيف كثيرة من كتب ومقالات وتحقيقات لدواوين الشعراء الجاهليين ومقدمات كتب وغيرها من المواد العلمية. وقد حملت مادة غنية بالنقد والفحص والتمحيص والشك والتوثيق. ولا يمكننا في هذه الصفحات البسيطة أن نقدم كل ما كتبوه، لأن ذلك سيتطلب أن يدرس هذا المقياس لأكثر من عامين لإتمام هذا الهدف ولكننا سنعرض أول عمل استشراقي رصين ناقش قضية الشعر الجاهلي، وهذه الدراسة هي:

1-ثيودور نولدكه(Theodor noldeke) : "في سبيل فهم الشعر الجاهلي" وهي جزء من كتابه "حول الشعر العربي" المطبوع في هانوفر، سنة 1864، ترجمت الدراسة على يد عبد الرحمان بدوي، في كتابه "دراسات المستشرقين حول الشعر الجاهلي" 1979.

كتب المستشرق "نولدكه" كتبا عديدة منها تحقيقه لديوان عروة بن الورد وترجمته سنة 1863، وديوان لقيط بن يعمر الإيادي سنة 1862، ومختارات من الأغاني العربية القديمة، مع شرح مفرداتها باللاتينية 1890، والمعلقات الخمس مع الشرح مع موجز لتاريخ الجاهلية سنة 1900، وغيرها من الإسهامات المعرفية الأخرى.

أثار في دراسته قضية الانتحال والشك في الشعر الجاهلي، من خلال مناقشة نشأة الشعر الجاهلي، طبيعته، ووصوله إلى العصر العباسي وتدوين.

يبدأ نولدكه حديثه عن الشعر الجاهلي بالتشكيك في نسبة الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا في مجمله إلى الفترة الزمنية التي تشير إليه –أي الجاهلية–ويقول:" الإنتاجات الأولى للشعر العربي القديم، التي حُفظت لنا على شكل مقبول، تُبدي وفي جوهرها عن نفس الأشكال الخارجية والباطنية التي نتعرفها في قصائد الشعراء المعاصر لـ (النبي) محمد"

هذه الملاحظة قيمة لأنها تشير إلى أن المستشرق يفترض مسألة –افترضها بعده كثيرون–اختلاق الشعر الجاهلي أو صنف منه في العهد الإسلامي ولا علاقة له بالعصر السابق له. ويقدم سببا لذلك وهي تشابه القصائد الجاهلية في بنيتها ومضامينها مع قصائد عصر صدر الإسلام وما تلاه. وسيكون ما سيأتي في الدراسة مناقشة لمظاهر هذا الانتحال ومحاولة إثبات لهذه الفرضية.

ملاحظات نولدكه على الشعر العربي الجاهلي

نورد فيما يلي الملاحظات التي ذكرها الكاتب:

- تشابه البيئة والأوضاع الاجتماعية وتأثيره على نسيج القصيدة العربية الجاهلية:

يورد نولدكه أن القصائد العربية بسبب انتمائها إلى بيئة محددة الملامح بدت فيها ظاهرة التكرار الأسلوبي وتكرار المضامين، فظهر فيه تكرار المعاني، وفي صياغة بعض الأبيات وتشابهها، واعتبر ذلك أمرا طبيعيا.

وإذا كان هذا هو انطباع المستشرق الأولي فهو يستدرك ذلك ليقدم سببا وجيها في الشعور الذي يراود الغربيين أثناء قراءة الشعر الجاهلي بأنه متشابه، فيقول:" كما أن العارف الخبير يدرك التمايز في ملامح مختلف أفراد شعب ما والفروق الدقيقة التي لا يبلغها الوصف الكتابي، بين لهجتي مكانين متجاورين، بينما الشخص الغريب يبدو له في بادئ الرأي كل شيء متشابها. فإن البحث الأعمق يستطيع أن يتبين الفارق في التصور بين مختلف الشعراء العرب. صحيح أننا لا نستطيع أن نوغل الحكم الدقيق على القصائد إلى الحد الذي يستطيعه النقاد العرب[...] ذلك لأن ذلك يحتاج إلى معرفة بدقائق اللغة."

وهو ما يؤكد أمرين: الأول مرتبط بمن يقرأ هذه القصائد، فالعربي يعرف عن خبايا اللغة ما يمكنه من التماس الفروق بينها بدقة، أما الغربي فلقلة خبرته يقف أمام تشابهها ولا يستطيع الولوج إلى التمايز بينها. أما الثاني فهو أن العودة إلى النقاد العرب في محاولة فهم القصائد الجاهلية يعد ضرورة لا بد منها.

- ورود القائد الجاهلي ناقصة ومبتورة عن السياق الذي قيلت فيه:

يرى المستشرق أن صعوبة فهم القصائد مرتبطة بوصولها إلينا مضطربة الترتيب ومنتزعة من سياقها الثقافي والحضاري، وذلك كله لأن العرب اعتمدت على الشفاهية في تناقل الشعر وتداوله، ولو أن القصائد وصلت كاملة عن طريق التدوين لكان فهمها وتأويلها أفضل بكثير؛ حيث يقول:" ذلك أنه لا شك أن شذرات الشعر العربي القديم كما هي عندنا الآن تختلف اختلافا شديدا عن صورتها الأصلية. فأدب شعب من الشعوب لا يمكن أن يبقى في صورته الأصلية وقتا طويلا بدون مسعدة الكتابة. وكلما ازداد انصهار مادة الأدب، فإن ما يبقى يزداد تغيرا حتى تثبّته الكتابة." ، مما يعني أن الكتابة هي الوسيلة الوحيدة التي تثبت النصوص وتحفظها من التحريف والضياع، وبما أن تدوين الشعر العربي القديم تأخر إلى العصر العباسي فإن الشك فيه مبرر، لأن الزمن يتيح للرواة الإضافة والنقصان. وهي إشارة كذلك إلى أن العربي في عصر الجاهلية لم يعرف الكتابة والتدوين.

- الرواة ودورهم في تحريف الشعر الجاهلي:

ناقش مسألة الرواية ويرى أن بعض الرواة في العصر الأموي قد سلكوا مسلكا يتسم بالاستهتار وعدم المسؤولية، ومن المغالاة أن نطالب رجلا مثل حماد الراوية (توفي بعد منتصف القرن الثاني) أن يدقق في آلاف القصائد التي كان يحفظها تدقيقا علميا وأن يرويها دون تغيير، ولطالما بقيت القصائد حية في أفواه الشعب، فإنها كانت معرضة لكل مصائر الأدب

الشعبي من تحويل باستبدال كلمة بأخرى عن غير قصد أو بغرض تيسير الفهم والحفظ. ورد المستشرق ذلك إلى الثروة اللغوية الهائلة التي تزخر العربية بها.

كما فسر كثرة ورود القطع الشعرية والأبيات المنفردة بأن الرواة كانوا يعمدون إلى انتقاء زبدة القصائد ويتجاهلون بقيتها ظنا منهم أنها غير ذات فائدة، كما يمكن أن يقوم الرواة سهوا بمزج أبيات لشاعر مع أبيات لشاعر آخر كما حدث بين شعر امرئ القيس وتأبط شرا.

- يفسر اختلاف رواية قصيدة ما في زمن التدوين. إن الرواة وجدوا أنفسهم أمام أكثر من رواية للقصيدة الواحدة فكل منهم دون الرواية التي تناسب ذوقه، كما أن الروايات الكثيرة نسبت القصيدة الواحدة لمؤلفين بسبب أخطاء الرواة أو تشابه أسماء الشعراء.
- التغييرات التي طرأت على القصائد الجاهلية بسبب الدين:

لاحظ أن هناك تغييرات لغوية مقصودة بسبب الدين، مثل تغيير أسماء الآلهة الخاصة بالعصر الجاهلي (اللات والعزى ونسر...إلخ) وبعد مجيء الإسلام تحرى المسلمون تغيير هذه المفردات بغيرها مثل الرحمان بدل العزى في بعض قصائد ديوان الهذليين أو الله بدل اللات، مما يدل على ظهور أفكار إسلامية في قصائد العصر الجاهلي= رد عليهم الباحثون العرب بكون العربي عرف لفظة الله في العصر الجاهلي أيضا، كما جاء في قول أوس بن حجر:

وباللّات والعزّى ومن دان دينَها — وبالله إن الله منهُنَّ أكبر

- دور الوزن في الحفاظ على القصيدة الجاهلية:

كان لوجود الوزن أن منع التغييرات القوية، وقد ظل اختلاف اللهجات متميزا في الألفاظ أما الفارق الدقيق في المنطق عن طريق الكتابة المنتظمة؛ أي الحركات الفتحة والضمة والكسرة فقد ضاع إلى الأبد.

- حدد بعض أسباب انتحال الشعر، بأن الشعراء المتأخرين وضعوا الشعر على لسان الشعراء الجاهليين لينالوا الشهرة والتقدير، مثلما فعل خلف الأحمر الذي أضاف إلى شعر النابغة الذبياني (ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه) التالي (إلا سليمان إذ قال الإله له) من صنع المتأخرين. ويلاحظ أن أسماء الأنبياء أو الأسماء التاريخية مثل سليمان وعاد هي من صنع إسلامي وإن كان يؤكد أن كلمة مثل (عاد) موجودة في الأشعار الصحيحة القديمة.
- درس المعلقات وأنكر تعليقها على الكعبة ذلك لأن أوائل المؤرخين لم يشيروا إلى ذلك مثل: الأزرقي وابن هشام، كما أن الأمر لم يرد في القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو كتاب الأغاني. وينسب أول ذكر للمعلقات عند أحمد بن النحاس (337 هـ)، الذي يذكر أن حماد الراوية هو أول من اختار قصائد المعلقات وانتقاها من بين ما لا يحصى القصائد الأخرى، وأيّده في ذلك أبو زيد القرشي، في كتابه " جمهرة أشعار العرب" ثم جرى

ذكرها عند الكتاب المتأخرين، مثل: ابن خلدون والسيوطي. أما التسمية فيرى أن المعلقات لا تعني التعليق بمعناه المادي، بل سميت كذلك لنفاستها فرفعت إلى مكان الشرف.

- قيمة الشعر الجاهلي:

يختم نولدكه بحثه عن الشعر الجاهلي معترفا بقيمته الثقافية، على الرغم من التغييرات والتحريفات، لأن ما وصل إلينا من شذارات يحمل روح الحياة العربية، وقوة الشعر البدوي وجماله. ويعكس الشعر الجاهلي لديه أخلاق العرب وفضائلهم، عظمتهم ومحدوديتهم، ويقارن بينها وبين أناشيد هوميروس التي على رغم التحريف بقيت الزهرة التي تفوح برائحة الشعر الإغريقي.

ومع ذلك يجعل في نهاية بحثه ملاحظة أسالت حبرا كثيرا بعده، وهي قضية التخييل والموضوعية في الشعر الجاهلي وقضية المحاكاة؛ حيث يقول عن القصائد " إنها ليست شعرا يسعى لتقديم صورة فوق حسية، ويؤدي إلينا أساطير متفوقة أو دائرة غنية من الأفكار المعبر عنها بالشعر؛ وإنما هي شعر جعل مهمته الرئيسية هي وصف الحياة والطبيعة كما هما في الواقع، مع قليل من التخيلات، بيد أنه في نطاق حدوده عظيم وجميل وتسري فيه روح الرجولة والقوة، روح تهتز هزا مزدوجا إذا ما قارناه بروح العبودية التي نجدها في آداب كثير من الشعوب الآسيوية الأخرى".

❖ **تعقيبات**

- مسألة الانتحال ذكرت من طرف النقاد العرب القدامى كابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء
- أشار المستشرق إلى أن السبب في مجيء القصائد مبعثرة غير كاملة هي اعتماد العرب على الشفاهية، وهذا يعد مدخلا آخر من مداخل التشكيك في صحة الشعر الجاهلي وما لحقه من تحوير وتحريف.
- الإقرار بأن العرب الجاهليين بعدم معرفة الكتابة والتدوين وهو ما رد عليه كثير من النقاد العرب، لعل أبرزهم، "ناصر الدين الأسد" في كتابه" مصادر الشعر الجاهلي"، الذي قدّم فيه فصلا كاملا عن "الكتابة في العصر الجاهلي"، وإن كان هناك من النقاد العرب من ينحو نحو المستشرقين في ذلك، ومنهم: شوقي ضيف ويوسف خليف...إلخ.
- الانتحال والتغييرات التي حدثت في الشعر الجاهلي لا يسلم منها شعر الشعوب القديمة كلها وهذا طبيعي نظرا لطبيعتها الشفاهية في النقل والتداول.
- مصادر بحث نولدكه ذاتها كانت المصادر التي كتبها النقاد العرب القدامى، ما تحدث منها عن بدايات الشعر الجاهلي، وما تحدث منها عن الرواة والانتحال، وما تحدث منها عن دور الحروب والغزوات الإسلامية التي مات فيها كثيرون وهلك معهم ما كانوا يحفظونه من شعر ...إلخ.

4. **دراسة المستشرقين للأدب العربي الحديث والمعاصر** (الشعر والرواية)

وردت الدراسة الاستشراقية التي سنأخذها بالعرض والتحليل في كتاب "الاستشراق الفرنسي والأدب العربي" لصاحبه "أحمد درويش"، وهي للفرنسي "أندريه ميغيل" (André Miquel) بعنوان: "الرواية العربية المعاصرة" (Le roman arabe contemporain)، وقد أصدر الباحث الفرنسي كتبا عديدة منها كتاب "الأدب العربي"، "الإسلام وحضارته"، "الجغرافيا البشرية للعالم الإسلامي حتى منتصف القرن 11م"

ملاحظات الكاتب حول الرواية العربية المعاصر

- **مدخل تاريخي:**

يبدأ الكاتب دراسته بالإحالة إلى أهمية دراسة الرواية العربية المعاصرة، لأنها تحمل في طياتها عالما يعبر عن حياة ما وراء البحر الأبيض المتوسط، إلا أنه ما يلبث أن يشير أول إشارة ذات قيمة، وهي أن الوعي العربي اختبر بقاؤه واستمرار بمواجهتين لمرحلتين عصيبتين: الأولى عندما وضعه الفتح الإسلامي في مواجهة ثقافات أقدم منه فاختلط بحضارة ما بين نهري (دجلة والفرات) وحضارة الهند وفارس ثم حضارة الإغريق، فاختلط الميراث الأجنبي لهذه الحضارات برسالة الدين الجديد، أما الثانية فكانت عن طريق الأتراك الذين عزلوا الحضارة العربية عن باقي الحضارات وأصابتها الشيخوخة وبعد أن تهاوت الدولة العثمانية

وهو اتهام ضمني أن الأتراك كانوا سببا أساسيا في تراجع الحضارة العربية الإسلامية، التي كانت منارة العالم في القرون الوسطى وتراجعت ليحتل العالم الغربي مكانها.

- مسألة اللغة الفصحى والعامية في الإبداع العربي:

يثير الكاتب مسألة الجدل الدائر بين أنصار استعمال اللغة العربية الفصحى وأنصار استعمال العاميات في الرواية؛ حيث من الصعب الاختيار: "فإما أن يتم البحث عن تلاؤم الرواية مع الشعب، وتعبيراته على مستوى لغة الناس، وهنا نقطع هؤلاء الناس عن ثقافتهم، وإما أن يتم البحث عن تلاؤمها مع ثقافتهم ذاتها، وهنا نعزلهم عن تعبيراتهم"، والقصد من ذلك طبعا أن الروائي العربي واقع في أزمة فإذا هو اتخذ اللغة العربية الفصحى سبيلا لكتابة الرواية ربطها بثقافته الكلاسيكية وعزلها عن الناس وإذا قرر اعتماد العامية فهو يربط الرواية بالناس ويعزلها عن ثقافتها الأصيلة. ويفترض أن اللغة المتوسطة التي تدمج بين الإثنين ستكون في المستقبل الحل لهذا المأزق

يطرح المستشرق قضية أخرى تتصل بوضع النثر في الثقافة العربية، ذلك لأن الشعر ديوان العرب وهو يأخذ قيمة قصوى يتراجع أمامها النثر فيمكن أن ندهش عندما نرى أحد الأمراء في الخلافة العباسية (الشريف الرضي) في بغداد، يضع في عداد العلوم مع التوحيد والفقه وعلم اللغة وعلى الدرجة نفسها معها الشعر، في حين يتقهقر النثر ليستخدم خارج حقل الأدب، في كتب العلوم الدينية، ومع ذلك النثر عرف أمجاده في القرن الرابع للهجرة مع كتابات الجاحظ وغيره.

- الكتابات النثرية المعاصرة والنثر في القرون الوسطى

يعتقد الكاتب أن مقدمته التاريخية التي بدأ بها المقال لا بد منها، ذلك أن النثر العربي الحديث ومن بينه المقامات والرواية مرتبط أساسا بالنثر في القرون الوسطى ويعطي مثالا بالمويلحي صاحب "حديث عيسى بن هشام" الذي سار على خطى الهمذاني في مقاماته بأسلوب الفقرات الطويلة المسجوعة وغيرها من الأساليب اللغوية، وهو الأمر الذي ستحدث الرواية ثورة، إذ "يمكن أن نقول بوضوح أن الرواية العربية أحدثت ثورة رئيسية، وبالنسبة للذين تعودوا على نثر عربي يعتبر البحث عن المحسنات الصوتية فيه هدفا أعلى فإنهم سيجدون في الرواية العربية الحديثة منبعا متجددا للدهشة لأنه أخيرا يقدم الرواية وحدها أو تكاد في أرض تشقها دون أي عون وراءها"

لذلك يفترض أن الرواية العربية المعاصرة مصيرها مرتبط بنجاحها في الموازنة بين الحداثة والتقليد (التراث)، "لأن نجاح الرواية وأهميتها بالنسبة لمستقبل ثقافة عربية جديدة، يتوقف على العلاقة التي يتحدد داخلها نصيب الحداثة والتقاليد، لأن رواية تامة الحداثة، لن تلقى إلا نجاحا محددا في منظور العادات العربية الأدبية"، وهكذا فإن على الرواية العربية أن توازن بين الاثنين فتستوعب التراث السردي العربي القديم وتعيد بناءه بما يتناسب مع إلزامات العصر الجديد شكلا وموضوعا.

- علاقة الرواية الفرنسية الواقعية بالرواية العربية

يرى الكاتب أن الرواية العربية ارتبطت كثيرا بالرواية الواقعية الفرنسية التي تعرف عليها الكتاب من خلال البعثات إلى فرنسا ومن خلال الترجمات، و" ليس هناك ما يدهش حين نرى الرواية والمجتمع يتبادلان الاقتراحات والنماذج المتطابقة، وليس مصادفة أيضا أن تلعب مدرسة الواقعية الفرنسية دورا هاما في تكوين الرواية الحديثة، لدرجة استلهام عناوين بعض الروايات منها، لأن الواقعية يبدو أنها تكاد تسود اليوم وحدها"، ويتحدث الكاتب هنا عن الواقعية الاجتماعية التي وجد فيها المبدعون العرب حاجتهم لمناقشة قضايا مجتمعاتهم، ومنهم : نجيب محفوظ في كثير من رواياته، منها: بداية ونهاية، السمان والخريف، وكثير من الرواية التي تحدثت عن القومية العربية وواقع الشعوب.

- الشخصيات الروائية المتكررة

يلاحظ الكاتب أن بعض الشخصيات الروائية متكررة وشديدة التوغل في النموذج الروائي العربي، منها: شخصية الفلاح والطالب " فهما نمطان أكثر قدما، ويبدو أن ظهورهما في الأدب العربي يرتبط بالشعارات الاجتماعية لحركة التجديد، فمنذ الربع الأخير للقرن التاسع عشر كان الاهتمام بالعودة إلى الإسلام الصافي في منابعه، وخاصة بدعوته إلى العدالة والمساوة وتمجيده للمعرفة، وقد طوّر كل ذلك في عالم الأدب موضوعين رئيسين: الاحتجاج الاجتماعي، والترغيب الثقافي، لكن هذين الموضوعين عرفا ألوانا مختلفة من المعالجة مستوحاة من أحد الخيارين"

يعطي الكاتب مثالا برواية (الأرض) لشرقاوي الصادرة عام 1954، التي عبرت عن آلام الفلاح ومجد الإنسان ووحدته وشجاعته وظلت هذه الرواية في اعتباره مثالا لتصوير نضال الفلاح وارتباطه بالأرض في كل العالم العربي، فظهر بعد الشرقاوي كتاب كثر ينتصرون للفلاح وحركات شعوبهم نحو العدالة منهم "عبد الملك النور" و"فؤاد التركلي" و"شاكر يزبك.

وإذا كانت هذه الشخصيات متكررة كثيرا، فهناك شخصيات أخرى مضادة وفاعلة أيضا منها التجار وملاك الأراضي.

- البطل في الرواية العربية المعاصرة

ترتبط الرواية في تصور هذا المستشرق بالمجتمع وحركاته، وانطلاقا من ذلك فإن الوظائف الاجتماعية التي تسود داخل المجتمع تؤثر بالضرورة في وظائف أبطال الروايات وشخصياتها، فيقول "إن دراسة نماذج الشخصية الروائية بالقياس إلى الاختبارات الأساسية للمجتمع العربي اليوم، هي شأنها في ذلك شأن دراسة أنماط الوظائف... فما دام هذا المجتمع يتحدد من خلال ارتباطه داخل كفاح غايته التقدم والعدل فإن أبطال الرواية يمكن أن يصنفوا إلى ثوريين ورجعيين، والطبقة الأخيرة تصنف إلى رجعيين بوعي أو بدون وعي"، ويمكننا على سبيل المثال أن نقارن بين شخصيتي الطالب والتاجر أو شخصيتي الفلاح والإقطاعي لنعلم الإسقاط الذي تؤديه الرواية العربية على الصراع الموجود داخل المجتمعات العربية.

ونورد فيما يلي السمات التي استنتجها:

1-مسألة الأنموذج في الرواية العربية الواقعية؛ حيث لا يصور البطل منعزلا، بل على العكس فإن الذي يسوغ مواقفه هو الإحالة دائما إلى سياق اجتماعي، وهو يتحمل في قراراته وأحداثه ثقل ما يحيط به في البيت أو في المدرسة أو في الأمة.

2-ومن هنا، فإن من النادر ظهور فرد يحمل شخصية "منفردة " أو بتعبير آخر يحمل "شخصية" بطل رواية، وعلى العكس فإنه يشف حتى في ملامحه عن نمط محدد، هو في الحقيقة ممثل طبقة خلقية أو حقيقة اجتماعية.

3-بطل الرواية العربية المعاصر في كثير من الزوايا بطل ملحمي، وهنا تبدو الرواية مرة أخرى غير متناسقة مع مثل هذا النهج الملحمي نظرا لاختلافها الشكلي والتقني.

4-بروز النبرة الخطابية في الرواية مما يجعل المؤلفين يحلون محل الأصالة التقليدية لأبطال الرواية، جسدية كانت أو نفسية، أصالة من لون آخر، تنشأ من معطيات متغيرة لمنبع واحد هو الطائفة الاجتماعية أو الطبقة الأخلاقية أو الشعب، فيبدو البطل انعكاسا لنمط عام.

- الرواية العربية المعاصرة تعبير عن تفاعل ثقافي

يورد المستشرق بشكل جميل تأثير الكتاب العرب في الكتابات الفرنسية من جهة، أثر ذلك عليهم من جهة أخرى حيث لم يقبلوا في بيئتهم الأصلية ولم يقبلوا في فرنسا، في إشارة إلى الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية؛ حيث "ينبغي التنبه إلى المبدأ الثاني في كل سياسية ثقافية في العالم العربي اليوم، وأعني بها التحول من ثقافة التجوال إلى الثقافة القومية ، ويزداد الإحساس بهذا الشعور عند إدراك وجود قوة للثقافة العربية، تؤثر بها على بعض اللغات الأجنبية حتى أيامنا هذه، والمشتغلون في الأدب الفرنسي ينسون كثيرا ما يدينون به لواحد مثل "كاتب ياسين" أو مثل "جورج شحاتة"، وإن تمثيل الرواية في هذا النوع من التأثير أقل ظهورا من أنواع أخرى كالشعر أو المسرح، وأن بعض هذه الأعمال "الباحثة" التي أشرنا إليها، ربما كانت تستقبل من خلال الشعور الجماعي على أنها "طفيلات أجنبية" في عباءة عربية"

- العرب وأروبا

لم يفوت الكاتب فرصة القول بتفوق الغرب على العرب قوة وعلما في العصر الحاضر وهذا التفوق واقع لا كذب فيه، كما أنه يتضح عندما يتعلق الأمر بالرواية أيضا، هذا الفن الغربي الذي يكتب فيه العرب أيضا، فيقول"فهناك الغرب حامل القوة المادية والتكنيك، التي ينبغي للعرب أن يحصلوا عليها، لكن في الوقت نفسه، هناك مبادئ مادية ينبغي أن تكون مرفوضة لصالح تعاليم خالدة للروح العربية الإسلامية، وصلة "أبناء العم المتصارعين" الطويلة بين العرب وأوروربا. هذه الصلة المليئة بجاذبية الآخر ورعبه، هذه الأمور جعلت من المحتمل أن يكون الشيء الأساسي للعرب بدءا من الآن ولفترة طويلة، ولا يتمثل في تكييف وضع أنفسهم بالنسبة إلى العرب، قدر ما يتمثل فيما ينبغي على الغرب أن يفعله في وضع نفسه بالقياس لهم."[3] ومع ذلك يجب الأول أن ملاحظته هذه دقيقة لأن مسألة الآخرية تفرض على الطرفين أن يحددا موقعهما بالنسبة إلى الآخر على حد سواء.

- يختم الكاتب

يختتم الباحث مقاله، بأنه لم يتمكن من الإحاطة بكل جوانب ومميزات الإنتاج الروائي العربي المعاصر وإن ما تحدث عنه هو المشكل الرئيسية التي تواجهها الرواية العربية المعاصرة فحسب، وأشار إلى أن الدور الكبير الذي يجب أن تلعبه هو أن تكون طريقا تسلكه الأمة العربية للتعبير عن نفسها بشكلها وأسلوبها وغاياتها.

مراجع المحاضرات

1-أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص24، نقلا عن:ميكائيل أنجلو جويدي، علم الشرق وتاريخ العمران.مجلة الزهراء، الربيع الأول، 1347هـ

2-أحمد درويش، الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1997.

3-إدوارد سعيد، الاستشراق، إدوارد سعيد، الاستشراق- المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع،ط 1، القاهرة، 2006.

إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية – بحث في الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية،ط2، دار حنين، الأردن، 1992.

4-برنارد لويس، الإيمان والقوة-الدين والسياسة في الشرق الأوسط، تر: أشرف محمد كيلاني، ط1 دار الكتاب العربي، القاهرة، 2017.

5-خوان غويتسولو، في الاستشراق الإسباني، تر: كاظم جهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دت.

6-رودي بارث، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية-المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، تر: مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، سلسلة ميراث الترجمة، ع° 1784، القاهرة 2011.

7-شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط11، القاهرة، دت.

8-مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر، ط1،بيروت، 1969.

9-محمد فتح الله الزيادي، الاستشراق أهدافه ووسائله- دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون، ط1، دار قتيبة، 1998.

10-محمد فاروق النبهان، الاستشراق –تعريفه، مدارسه وآثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، 2012.

11-محمد إبراهيم الفيومي، الاستشراق رسالة استعمار-تطور الصراع الغربي مع الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993.

12-محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المنار، ط2، القاهرة، 1989.

12-ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي- إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، ط 3، بيروت، 2002.

مجموعة مؤلفين، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، تر: عبد الرحمان بدوي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1979.

14-يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، مكتبة غريب، القاهرة،2001